

معالم على طريق الصحوة [١١]

اللباس

* أهميته.

* عوامل بقاءه وهدمه

* صور على الثبات وعدمه.

د. محمد موسى الشريف

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى للناسر

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٢٦٣٩١

الترقيم الدولي: I.S.B.N.

977-6142-74-5

دار الأندلس الجديدة للنشر والتوزيع

١٨ شارع مطر - أحمد حلمي - شبرا مصر - ت: ٠١٠١٠٦٨١٣٥

newandalus@hotmail.com





إهداء

إلى والديّ الكريمين

إلى كل مجاهد عامل لتمكين دين

الله في الأرض

إلى زوجتي العزيزة

إلى أولادي رجاءً أن يكونوا من

العاملين الثابتين

قال تعالى: ﴿وَأِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا
غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾

[محمد: ٣٨]

قال عليه الصلاة والسلام: «لا تزال طائفة
من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم
ظاهرون».

أخرجه البخاري

مقدمة الناشر

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، وبعد..

فإن الصحوة الإسلامية أمل المستقبل المرتقب، وعدة الغد المقبل، وقد عمَّ نورها الأرجاء، وظهر أبنائها في كل الأنحاء، وكان من آثارها الإنابة الخالصة والتوبة الصادقة والعبادة الخاشعة، ومن ملامحها النهضة العلمية والأصالة المنهجية والاستقلالية الفكرية، ومن مزاياها امتدادها في مجالات الحياة المختلفة، واستفادتها من معطيات العصر الإيجابية، وجوانب الخير فيها - بحمد الله - كثيرة يضيق المقام عن حصرها.

ومع ما أسلفناه إلا أنها تحتاج إلى ترشيد وتسديد، وإلى تدعيم وتقويم، ومن ثم جاءت هذه السلسلة - معالم على طريق الصحوة - لتكون نبراساً على الطريق، تعالج المشكلات، وتنضج الفهم وتقوى العزم، وتوضح المنهج، وتعلم الأدب، وتيسر الثقافة، وتحذر من المزالق.

وهذا الكتاب حوى ركيزة مهمة من الركائز التي يحتاجها جيل الصحوة، وهي الثبات الذي ينبغى التواصي به، والإعانة عليه، لأن هذا العصر ملئ بما يثير الشبهات، ويهيج الشهوات، إضافة إلى كثرة الفتن، وتزايد المحن، وفشو المنكرات وتنوع الانحرافات وشدة الأعداء، وعظمة البلاء، مما يظهر عظمة الحاجة إلى الثبات.

الثبات

والكتاب يبين معنى الثبات، ويعرض جوانبه المتنوعة، ويجلى أهميته البالغة، ويذكر بعض صورته، وصوراً أخرى عن عدم الثبات، ويوضح عوامل بقاءه وعوامل هدمه، وذلك كله فى اختصار غير مخل، وسرد غير ممل، ونقول مختارة وأمثلة ممتازة، ولعل نفاذ الطبعة الأولى والثانية من الكتاب فى ستة أشهر دليل على أهمية الموضوع من جهة، وجودة الكتاب من جهة أخرى.

وها هو الكتاب بين يديك كما وصفناه لك مع زيادات الطبعة الثانية والثالثة، نقدمه لك والأمل يحدونا أن تجد فيه كنزاً ثميناً، وزاداً معيناً.

الناشر

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله الذى شرح صدور المؤمنين، وثبتهم على الحق المبين، وأعانهم فكان لهم خير معين، وحماهم من إبليس وحزبه الغاوين، من شياطين الإنس والجن أجمعين، ووقاهم من سلوك المهالك، والهلاك فى أودية ومسالك، وربط على قلوبهم النقية، وأزال منها الوسوس الخفية، وألحقهم بالقافلة النورانية، أصحاب وأتباع خير البرية، وجعلهم من أهل اليقين، فلم يكونوا بحمد الله ضالين ولا شاكين.

والصلاة والسلام على خير الأنام، رسول ذى الجلال والإكرام، المبعوث رحمة للعالمين، ودلالة للحائرين، دعا إلى الله حتى أتاه اليقين، وصبر فكان صبره معونة للسالكين وثباتاً للمؤمنين.

أما بعد:

فقد كثرت فى هذا الزمان الفتن، وتنوعت للحن، وصار الثبات على الدين قليلاً فى الناس، إلا من فئة قليلة وهبت نفسها لله، واستصغرت فى جنبه - سبحانه - ما تلقاه، فقامت تدعو إلى الدين الصحيح، وتجنب المعاصى والبدع الخفى منها والصريح، ونادت بالرجوع إلى ما كان عليه الرسول ﷺ والصحابة، من إقامة لشعائر الإسلام، وجهاد للكفرة وعباد الأصنام، فصارت تلك الفئة - بحمد الله - هى الظاهرة المنصورة، وغيرها من الفئات مردولة مخذولة.

ولما كان الأمر كذلك فقد رأيت أن أصع رسالة في تثبيت أولئك الأبطال، وإسعادهم بما ورد في حقهم وأمثالهم من الآيات والأحاديث والآثار، وأذكر لهم بعض قصص الثابتين العظماء، من الأنبياء والرسل والأولياء، وأبين لهم مسالك إبليس، في التلبس والتبئيس، وأسرد عليهم الخصال الموجبة للثبات، وغيرها من الخلال الناسخة للرسوخ الموجبة السخط والإبعاد، وإن كنت في حقيقة الأمر مفتقراً إلى كل ذلك التقويم، راجياً من الله تعالى الثبات على الدين القويم.

ومما حملني على تصنيف هذه الرسالة -أيضاً- ما أراه ويراه الناس من تراجع بعض الصالحين عن التزام الدين، وانزواء بعض العاملين مؤثرين الراحة على العمل لتمكين دين الله في الأرض، ورفع رايته في العالمين، وظهور بعض المشايخ وطلاب العلم الطامحين لحطام من الدنيا مهين، هذه فئات من الناس موجودة في المجتمعات الإسلامية لكن بنسبة قليلة لم تصل بعد إلى حد الظاهرة، بفضل الله تعالى.

ولما كان الأمر كذلك، وصار يُخشى على العاملين المخلصين من التأثير بهذا الداء الفتاك -ضعف الثبات- وضعت هذه الرسالة للأسباب الأنفة الذكر، وأرجو من الله تعالى القبول، وأن يثيبنى عليها بما هو المأمول من واسع فضله العظيم وخيره العميم.

المؤلف

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين،
وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد سررت بنفاد أعداد الطبعة الأولى والثانية، ومبعث ذلك السرور
هو اطلاع عدد كبير من الناس على موضوع الكتاب واقتناؤهم إياه، فلعل
معاني الثبات تخالط قلوبهم وعقولهم، وتنشرح لها صدورهم، فترسخ
أقدامهم، وتصح أفهامهم، فإن حصل هذا فهو المأمول من تصنيف
الكتاب، إضافة إلى ثواب يوم الحساب، والله المسؤول أن يلبس هذا
الكتاب ثواب القبول، وينيلني وقارئه من الأجر ما هو المأمول، وحسبي
الله ونعم الوكيل.

المؤلف

معنى الثبات

الثبات لغة:

ثبت الشيءُ يثبتُ ثباتاً وثبوتاً فهو ثابت، وثبيت، وثبت.

ورجل ثبت: مثبت في أموره.

وثبت الرجل: صار ثيباً^(١).

والثبات: الاستقامة على الهدى، والتمسك بالتقى، وإلجام النفس وقسرها على سلوك طريق الحق والخير، وعدم الالتفات إلى صوارف الهوى والشيطان، ونوازع النفس والطغيان، مع سرعة الأوبة والتوبة حال ملابسة الإثم أو الركون إلى الدنيا.

(١) «تاج العروس»: ث ب ت.

جوانب الثبات

للثبات جوانب متعددة، منها:

١- الثبات على دين الله - تبارك وتعالى:

ومنه قول يعقوب، عليه الصلاة والسلام، لبيته: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وهذا هو رأس المال الذي لا يحتمل الخسارة، وهو وصية الأولين والآخرين من النبيين والصالحين.

٢- الثبات على الالتزام بدين الله تعالى:

وهذا جانب مهم يدل على سلامة إيمان الشخص، وصحة تصوره لهذه الدار وللدار الآخرة، أما إن كان له في كل وقت حال، وفي كل يوم تفلت ومآب فهذا يحتاج إلى مراجعة أمره والاهتمام بشأنه.

وفيكى أمثال هؤلاء نفور الناس منهم، وعدم الاعتداد بشيء مما يظهر عليهم من الصلاح والالتزام، لأنه سحابة صيف لا تلبث أن تزول.

قال رسول الله ﷺ: «إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فسلوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم»^(١).

(١) قال الإمام الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير، وإسناده حسن: انظر «مجمع الزوائد»: ٥٢/١.

والثوب الخلق: البالي، وانظر «لسان العرب»: خ ل ق.

وقال عليه السلام موضحاً صعوبة الثبات على الدين في هذا الزمان الذى نعيشه وضرورة المجاهدة والمدافعة للنفس والعدو:

«الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر»^(١)، وهذا تصوير فريد لما يجرى اليوم فى دنيا الناس من تفلت من شعائر الدين وواجباته، ومن مجاهدة آخرين للبقاء على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والسلف الصالح.

٢- الثبات على المبدأ الإسلامى الصحيح والعهد الوثيق:

وهذا قد يتساهل فى شأنه بعض الناس فيبرم ميثاقاً وعهداً، ثم يسوغ له نقضه بحجة أنه ليس بواجب شرعى، ومثال هذا أن يتفق أشخاص على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، أو الدعوة إلى دين الله تعالى، ثم يتنصل واحد أو أكثر من هذا الاتفاق، فإذا سلم -جداً وتنزلاً- أن هذا العهد والاتفاق ليس واجباً شرعياً أفلا يكون ترك ذلك العهد والميثاق من نقص المروءة، والتراجع عن المعروف؟ وللشرع المطهر آداب وواجبات يمكن أن يندرج الحفاظ على هذه الموائيق تحتها مثل المروءة، والفتوة، والحفاظ على العهد، والوفاء به، والتعاون على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فمن ترك شيئاً من ذلك فقد أحل بآداب الشرع المطهر، وأخل -أيضاً- بالآداب الاجتماعية المتعارف عليها.

(١) أخرجه الإمام الترمذى فى كتاب الفتن، وهو حديث حسن بشواهد، وانظر «مجمع الزوائد»: ٧ / ٢٨٤-٢٨٥.

تقول العرب: «فلان ذمام لا يُبليه الزمان، ولا كرور الأيام، ولا مرور الأعوام، وعهد لا يغيره تنقل الزمان وتكونه، ولا علل الدهر وحوادثه».

وتذم العرب من كان ليس ثابتاً فتقول:

«فلان لا ثبات لوده، ولا دوام لعهد، ولا بقاء لوصله، ولا وفاء لعقده»^(١).

فالتراجع عن العهود والمواثيق عمل قبيح ولا شك، يدل على تذبذب فاعله وعدم ثباته، ويدل -أيضاً- على سوء فى التربية الإسلامية الصحيحة، والنظرة المتكاملة للكون والحياة.

وعلى العاقل أن ينظر إلى حال الثابتين على مبادئهم سواء أكانوا منا - أهل الحق- أم كانوا من أهل الباطل والعقائد الضالة، فإنهم يصلون إلى أهدافهم ولو بعد حين، لكن بعد ثبات عظيم وتضحيات كثيرة، ألم تر إلى الأحزاب الشيوعية كيف ثبتت على باطلها حتى تولت الحكم فى بلاد كثيرة فى أوروبا وآسيا وغيرها، وكذلك أهل الحق يصلون إلى مرادهم من زمان الرسل والأنبياء حتى يومنا هذا، لكن لا بد من ثبات عظيم وصبر جميل.

قال تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

(١) «الالفاظ الكتابية»: ١٩٠.

الله أكبر، إننا والله نرجو من الله ما لا يرجو الشيوعيون الملاحدة، ولا العلمانيون غير الدينيين، ولا الرأسماليون، ولا الإباحيون، وكل أولئك يصبرون ويثبتون على باطلهم، أفلا نصبر نحن ونثبت على حقنا وعقيدتنا الصافية الصادقة؟ بلى إن شاء الله تعالى.

أهمية الثبات

الثبات معنى جميل عظيم، له في نفس الإنسان الثابت وفيمن حوله من الناس مؤثرات مهمة تفعل فعلها وتؤثر أثرها، وفيه جوانب من الأهمية الفائقة في تربية الفرد والمجتمع تتضح في الآتي:

أولاً: الثبات دلالة سلامة المنهج وداعية إلى الثقة به:

لكل مسلم نهج يهجه وطريق يسلكه يوصله إلى دار القرار، وللعزة أو الهوان، فإن كان في نهجه ذلك دخل وفساد ظهر ذلك في ثباته، فهو متقلب دومًا لا يكاد يثبت على أمر، أو يدوم على شأن، بل تجده كثير الوسوس، متعدد المطامع، دائم الشكوى، سريع الملل، فلا يحصل بعد ذلك إلا على شيء يسير من مراده، وتطول به السنون وهو لم يصنع شيئًا ذا بال، وما ذلك إلا لكثرة تقلبه وإضاعة أوقاته.

وحال مثل هذا الشخص دال على فساد منهجه وسوء طريقته، إذ لو استقام منهجه على طريقة ثابتة لاستقام حاله وارتفع شأنه، وتقلبه هذا دال على سوء تربيته الإسلامية، وقد يدل على ضعف إيمانه وقلة يقينه، وقد يتطور الأمر إلى أن يناق المرء ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد يدعى أشخاص أنهم أصحاب منهج صحيح فلا يلبثون أن ينقلبوا أو يضعف ثباتهم أمام المغريات والأهواء والشهوات.

ثانياً: الثبات مرآة لشخصية المرء ومطمئن لمن حوله:

يثق الناس في الثابت الراسخ، ويعظم أثره فيهم، حيث إنه يُشيع فيهم الطمأنينة إلى حاله والركون إليه، بينما القلق المتقلب قلما يُرکن إليه ويوثق به، وهو عامل خوف واضطراب فيمن حوله من الناس.

ثالثاً: الثبات ضريبة الطريق إلى المجد والرفعة في الدنيا والآخرة:

كل عمل عظيم يحتاج تحقيقه إلى ثبات وقوة في تناول والأخذ، وليس هذا مقتصرًا على المسلمين فقط بل إن كل شعوب الأرض الطامحة لا تصل إلى المجد والرفعة والثناء إلا بثبات عظيم، ومن اطلع على تاريخ الغرب في زمان الثورة الفرنسية والثورة الصناعية وثورة البخار علم قدر ثباتهم وتضحياتهم، ومن اطلع على تاريخ الشيوعيين القديم والحديث معاً علم مقدار ثباتهم على إلحادهم والعياذ بالله -تعالى- إذاً أفلا نكون نحن المسلمين أعظم ثباتاً منهم على حقنا وعقيدتنا؟ بلى والله.

رابعاً: الثبات طريق لتحقيق الأهداف:

الثبات عامل مهم في الأثر الذي يتركه الإنسان في هذه الحياة، وهو الموصل -بإذن الله- إلى ما يريده المرء ويطلبه؛ فالمريد تغيير حركة التاريخ، والراغب تعبيد الناس لرب العالمين، والعامل على رفعة دينه وإعلاء رايته لا غنى له عن الثبات والرسوخ، وليس له -بغير الثبات- من مراده ذلك إلا الأوهام والأمانى.

صور على الثبات

يجدر بكل عظيم من العظماء وصفى من الأصفياء، من جند الله - تعالى - المقربين، ومن الدعاة العاملين أن يكون ثابتاً شامخاً راسخاً، لا يتزلزل ولا يتقلب. والأمثلة على هذا عظيمة كثيرة معروفة.

١- ثبات الأنبياء:

فالنظر إلى حال الأنبياء - خاصة أولى العزم منهم - يجد صور الثبات الرائعة القوية، فهذا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لم يؤمن له إلا قليل من قومه وعاداه منهم أقرب الأقربين، وألقى في النار، وامتحن بالأمر بذبح بكره إسماعيل، ولم تزد تلك المحن إلا ثباتاً على الحق والطهر.

وهذا رسول الله موسى - عليه الصلاة والسلام - يواجه من قبل اليهود، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، بأعظم ما يواجه به نبي من الأنبياء من تكذيب وإعراض وسخرية واتهام فلم يزد ذلك كله إلا ثباتاً وقوة وعزماً.

والناظر لسيرة رسولنا ﷺ يعلم عظم ثباته وقوة يقينه، بأبى هو وأمى ﷺ، ويكفى قوله ﷺ حينما ضغط عليه الكافرون ليهادهم أو يلين لهم: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»^(١).

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٢٦٦/١، وهذه قولة مشهورة ولكن ليس لها سند متصل، فيما أعلم، والله أعلم.

صور على الثبات

وقد ثبت النبي ﷺ ثباتاً عظيماً، فقد سلك معه الكفار مسالك عدة ليشنوه عن ثباته فما لان وما هان، ﷺ:

«سلكوا معه طريق الإغراء بالمال والرئاسة والجاه، فما استكان وما خضع.

سلكوا معه طريق الضغط العائلي والتأثير الطائفي، فما استكان وما خضع.

سلكوا معه طريق الاستهزاء والسخرية والاتهام فما استكان وما خضع.

سلكوا معه طريق المقاطعة الاقتصادية الشاملة له ولن آزره فما استكان وما خضع.

وقرروا أخيراً اغتياله فما استكان وما خضع.

وبعد أن أذن الله له بالهجرة حاربوه بحملات متعددة وحروب طاحنة ليستأصلوا دعوته وأتباعه، فما كان ذلك يرده عن تبليغ الدعوة ونشرها في الأرض...»^(١).

ولنظف قليلاً في الأحاديث والآثار والأخبار لنرى صوراً للثبات العظيم على الحق المبين في حياة الأنبياء والصالحين قد يجهلها بعضنا:

(١) «صفات الداعية النفسية»: الأستاذ عبدالله علوان: ٣٧-٣٨.

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:
 «عُرِضَتْ عَلَى الْأُمَمِ، فَأَخَذَ النَّبِيُّ يَمْرَ مَعَهُ الْأُمَّةَ، وَالنَّبِيُّ يَمْرَ مَعَهُ النَّفْرَ، وَالنَّبِيُّ
 يَمْرَ مَعَهُ الْعَشْرَةَ، وَالنَّبِيُّ يَمْرَ مَعَهُ الْخَمْسَةَ، وَالنَّبِيُّ يَمْرَ وَحْدَهُ..»^(١).

فهذا رسول مسدد مؤيد دعا إلى الله تعالى فلم يستجب له أحد، وآخر
 دعا فاستجاب له خمسة فقط، وثالث استجاب له عشرة فقط، وهكذا..

٢- وعن خَبَاب رضى الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ، وهو متوسد
 بردة وهو فى ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو
 الله؟! فقعد وهو مُحَمَّرٌ وَجْهُهُ، فقال: «لقد كان مَنْ قَبْلَكُمْ لِيُمَشِّطَ بِأَمْشَاطِ
 الْحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ
 الْمُنْشَارُ عَلَى مَفْرَقِ رَأْسِهِ فَيَشْتَقُ بِأَنْثِينٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلِيَتَمَنَّأَ اللَّهُ هَذَا
 الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّائِكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ مَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذُّئْبَ
 عَلَى غَنَمِهِ»^(٢).

يخبر رسولنا -ﷺ- أن نفراً ممن كان قبلنا لم يصددهم التخويف ولا
 العذاب الشديد عن دينهم بل ثبتوا عليه وجاهدوا من أجله حتى لقوا الله
 تعالى.

(١) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه: باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب: ٨ / ١٤٠.

(٢) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه فى باب: ما لقى النبي ﷺ وأصحابه من المشركين
 بمكة: ٥٦ / ٥.

٣- عبدالله بن حذافة بن قيس السهمي رضى الله عنه :

وهو صحابي كريم، ثبت في موقف عظيم، قلَّ أن يثبت فيه إلا الموفقون .

وقد ساق الإمام البيهقي -رحمه الله تعالى- قصته، فذكر أن عمر - رضى الله تعالى عنه- وجه جيشاً إلى الروم وفيهم عبدالله بن حذافة فأسروه، فقال له ملك الروم: تنصراً أشركك في ملكي، فأبى . فأمر به فصلب، وأمر برميهِ بالسهم^(١) فلم يجزع، فأنزل، وأمر بقدر فصب فيها الماء، وأغلى عليه، وأمر بإلقاء أسير فيها فإذا عظامه تلوح، فأمر بإلقائه إن لم يتنصر، فلما ذهبوا به بكى، قال: ردوه، فقال: لم بكيت؟

قال: تمنيت أن لى مائة نفس تلقى هكذا فى الله .

فعجب، فقال: قبل رأسى وأنا أخلى عنك .

فقال: وعن جميع أسارى المسلمين؟

قال: نعم، فقبل رأسه فخلى عنهم، فقدم بهم على عمر، فقام عمر فقبل رأسه^(٢) .

وذكر ابن عساكر تفصيلاً لقصته فيه فائدة فقال:

«وجه عمر بن الخطاب جيشاً إلى الروم وفيه رجل يقال له عبدالله بن حذافة -من أصحاب النبي ﷺ- فأسره الروم، فذهبوا به إلى ملكهم

(١) أى لغرض تخويله لا قتله، كما سيأتى فى الرواية التالية .

(٢) ساق القصة عن البيهقي الإمام ابن حجر فى «الإصابة»: ٢٨٨/٢ .

فقالوا: إن هذا من أصحاب محمد، فقال له الطاغية: هل لك أن تنصر وأشركك في ملكي وسلطاني؟

قال له عبدالله: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع مملكة العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت.

قال: إذا أقتلك.

قال: أنت وذاك.

قال: فأمر به فصلب، وقال للرماة: ارموه قريباً من يديه، قريباً من رجليه، وهو يعرض عليه وهو يأبى، ثم أمر به فأنزل، ثم دعا بقدر فصب فيها ماء حتى احترقت، ثم دعا بأسيرين من المسلمين فأمر بأحدهما فألقى فيها، وهو يعرض عليه النصرانية وهو يأبى، ثم أمر به أن يُلقى فيها، فلما ذهب به بكى، فقيل له: إنه قد بكى، فظن أنه جزع، فقال: ردوه. [فعرض] عليه النصرانية فأبى، قال: فما أبكاك إذا؟

قال: أبكاني أني إن قتلت فهي نفس واحدة تلقى الساعة في هذه القدر فتذهب، فكنت أشتهي أن يكون بعدد كل شعرة في جسدي نفس تلقى هذا في الله.

فقال له الطاغية: هل لك أن تقبل رأسي وأخلى عنك؟

قال له عبدالله: وعن جميع أسارى المسلمين؟

قال: وعن جميع أسارى المسلمين.

قال عبدالله: فقلت في نفسي: عدو من أعداء الله فأقبل رأسه يخلى عني وعن أسارى المسلمين لا أبالي، فدنا منه فقبل رأسه، قال: فدفع إليه الأسارى، فقدم بهم على عمر فأخبر عمر بخبره، فقال: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبدالله بن حذافة، وأنا أبدأ، فقام عمر فقبل رأسه.

فكان أصحاب رسول الله ﷺ يمازحون عبدالله فيقولون: قبلت رأس علع^(١)، فيقول لهم: «أطلق الله بتلك القبلة ثمانين من المسلمين».

«وفي حديث آخر قال الملك: اتركوه واجعلوه في بيت ومعه لحم خنزير مشوى وخمر ممزوج، فلم يأكل ولم يشرب، وأشفقوا أن يموت، فقال: أما إن الله - عز وجل - قد كان أحله لي، ولكن لم أكن لأشمتك بالإسلام»^(٢).

٤- ولما تمكن العبيديون^(٣) الملاحدة من بلاد المغرب ومصر فعلوا الأفاعيل في أهلها، لكن نفرًا من الصادقين ثبتوا واحتسبوا، وانظر إلى ما يذكره الإمام الذهبي عن حال الإمام القدوة الشهيد أبي بكر محمد بن أحمد الرملي، والمعروف بابن النابلسي حيث قال له جوهر الصقلي قائد العبيديين:

(١) العلع: الرجل من كفار العجم، انظر «لسان العرب»: ع ل ج.

(٢) انظر «مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر»: ١٢/١٠٥-١٠٦.

(٣) هم الذين أسسوا الدولة الفاطمية في المغرب ومصر، وادعوا زورًا النسب الشريف، وفعلوا الأفاعيل في بلاد المسلمين، وكان بعض حكامهم كفرًا واضح كفرهم كالحاكم حيث ادعى الإلهية والعباد بالله.

«بلغنا أنك قلت: إذا كان مع الرجل عشرة أسهم وجب أن يرمى فى الروم سهمًا وفينا تسعة.

قال: ما قلت هذا، بل قلت: إذا كان معه عشرة أسهم وجب أن يرمىكم بتسعة وأن يرمى العاشر فيكم أيضًا، فإنكم غيرتم الملة وقتلتم الصالحين، وادعيتم نور الإلهية، فشهره ثم ضربه، ثم أمر يهوديًا فسلخه وحشى تبنًا، وصلب»^(١).

٥- وذكر الإمام الذهبى أن الذين قتلهم عبيد الله وبنوه^(٢) أربعة آلاف من عالم وعابد ليردهم عن الترضى عن الصحابة فاخترأوا الموت^(٣).

وأما التاريخ الحديث فيزخر ويفخر بمئات من المجاهدين المسلمين الصابرين الثابتين على الحق حتى قضوا نحبهم وما بدلوا ولا غيروا، والحديث عنهم يطول لكن حسبى أن أورد ثلاثة أمثلة:

٦- أما الأول فهو: أحمد سامورى تورى:

هذا بطل إفريقى اعتنق الإسلام عن يقظة وإيمان، ثم مضى ينشر عقيدته الخالدة فى القبائل الوثنية «فى جنوب السنغال وجامبيا، وعلى شواطئ نهر النيجر الأعلى وروافده حتى ألف بحجته الباهرة ودليله المقنع أمة إسلامية مزمنة تهيم بالإسلام عن دراسة واقتناع..

(١) «نزهة الفضلاء»: ٢ / ١١٥٩.

(٢) أى العبيديون الملاحدة الذين سبق ذكرهم فى الفقرة السابقة.

(٣) المصدر السابق: ٢ / ١٠٨٤.

كافح الإمام في ميدان الدعوة حتى انتصر، ثم حمل السيف مع شيعته لينازل المستعمرين الفرنسيين حين قدموا إلى بلادهم يحملون الصواعق والقذائف، ويسلطون على الأبرياء الأمنيين كوارث العدوان وفظائع الإرهاب، وجعل الإمام الأعزل يجمع الصفوف ويلهب العزائم، ويجمع الذخيرة مما ينهبه من سلاح المعتدين حتى كتب في سجل النضال صحيفة ناصعة تعبق بأريج العزة وتضئ بنور الإيمان.

لقد التحمت كئائب البطل الباسل بشراذم الفرنسيين في كفاح مرير ضاق به القائد الفرنسي «أرسيناد»، ومرت ست سنوات ولم يتقدم شبراً واحداً في ميدانه، ومن قبله قاسى الكولونيل «برنى دى بورى» كؤوس الهزيمة مترعة قاتلة، ورأى المعتدون أن القتال وحده لا يفضى إلى نصر سريع، فأعملوا الحيلة حتى اختطفوا نجل الإمام ليفتوا بذلك فى عضد أبيه، ولكنه قال لمن ساوموه على افتدائه: إن ولدى لن يزيد عن مسلم عادى كهؤلاء الذين تحصدون أرواحهم دون حياة، فإذا كنتم تتوهمون أن اعتقاله سينهى الحرب فقد أسأتم التقدير، ثم واصل جهاده مستميتاً فى الكفاح، ويئس الفرنسيون من النصر السريع فاحتالوا ثانية على اكتسابه، وعمدوا إلى النجل الأسير فاستمالوه بلذائذ النعيم وطرائف الرفاهية، وبعثوا به إلى باريس ليرى البهجة والنضارة، واللذة والعريضة فينتشى بما زين الشيطان من إثم، ويستكين لما أبدع الباطل من خداع، حتى إذا قطع الشوط إلى نهايته ساوموه على مخالفة أبيه والعمل على إنهاء الحرب ليصبح الوالد ملكاً مشمولاً بالحماية الأجنبية، ثم ليكون الابن من بعده

ولى العهد وحليف الاستعمار، ورجع الشباب المغرور متحمساً للخيانة النكراء، وبدأ بالسعى إلى استمالة الضعفاء لوجهته، فأدرك الإمام حقيقة ما كان، والتهب في صدره عاطفتان قويتان: عاطفة الأبوة ذات الحنان والسماح، وعاطفة الإسلام ذات القمع للباطل والانتقام للحق، فأثر دينه ووطنه، ثم حكم على ابنه بالإعدام السريع جزاء خيائته ومروقه، وبادر فأوقع الجزاء على رؤوس الأشهاد فى ثقة وإيمان . . .^(١).

٧- وأما المثال الثانى فهو: الشيخ المجاهد عمر المختار، الذى تربى فى الزوايا السنوسية فى ليبيا، ثم وقف نفسه لنصرة الإسلام والذب عن حياضه، خاصة بعد دخول الإيطاليين ليبيا سنة ١٩١١، حيث جاهد الشيخ الكفار جهاداً عظيماً قرابة عشرين سنة لم يتوان ولم يتذبذب، بل ثبت ثباتاً عظيماً مشرفاً، حتى إذا ألقى القبض عليه سنة ١٩٣١ أظهر ثباتاً عظيماً حال التحقيق معه على أن سنه كان قد جاوز السبعين، لكن ثباته كان مضرب الأمثال.

واستمع أخى القارئ كيف قبض عليه وما جرى بينه وبين الحاكم العسكرى الإيطالى فى ليبيا:

«ذهب - كعادته - فى نفر قليل يقدر بأربعين فارساً يستكشف العدو ويتفقد مراكز إخوانه المجاهدين، ومر بواد صعب المسالك كثير الغابات، وعلمت به القوات الإيطالية بواسطة جواسيسها، فأمرت بتطويق الوادى،

(١) من مقال للأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى بعنوان: «الإسلام فوق كل اعتبار» نُشر فى مجلة الأزهر ٣٣/٢: سنة ١٣٨١هـ.

فما شعر المختار ومن معه إلا وهم وسط العدو، ودارت معركة، وعلى الرغم من كثرة عدد العدو واحتياطاته تمكن المجاهدون من خرق صفوفه، ففاجأتهم قوة طليانية أخرى، وكانت ذخيرتهم على وشك النفاد فاشتبكوا في معركة جديدة قتل فيها جميع من بقى مع المختار، وقتل حصانه أيضاً ووقع عليه، فتمكن من التخلص من تحته، وظل يقاتل وحده إلى أن جرح في يده، ثم تكاثر عليه الأعداء وغلب على أمره، وأسروه وهم لا يعرفون من هو، ثم عُرف وأرسل إلى سوسة، ومنها أُركب الطراد «أوسيني» إلى بنغازي حيث أودع اسجن، وعزا المختار في حديثه عند قدومه إلى بنغازي سبب وقوعه في الأسر إلى نفاد ذخيرته، وأكد للمتصرف الإيطالي أن وقوعه في الأسر لا يضعف شيئاً من حدة المقاومة إذ إنه قد اتخذ من التدابير ما يكفل انتقال القيادة من بعده إلى غيره.

وختم المختار قوله بكلمات خالديات لا بد أن نلقنها لأبنائنا جيلاً بعد جيل لتكون مثلهم الأعلى في التوكل على الله والثبات على الحق، فقال إن القبض عليه ووقوعه في قبضة الطليان إنما حدث تنفيذاً لإرادة المولى عز وجل، وأنه قد أصبح الآن أسيراً بأيدي الحكومة، فالله - سبحانه وتعالى - وحده يتولى أمره، ثم أشار إلى الطليان وقال: وأما أنتم فلکم الآن وقد أخذتموني أن تفعلوا بي ما تشاءون، وليكن معلوماً أني ما كنت في يوم من الأيام لأسلم لكم طوعاً^(١).

(١) «القدوة الصالحة»: ١٨٥-١٨٦.

وحدث مرة أن خرج إلى القاهرة من برقة لغرض من أغراض الجهاد فاجتمع إليه مشايخ من قبيلة فى مصر فى قلوبهم ضعف العزيمة ويأس الشيوخ، وجعلوا يحاولون أن يشوه عن عزمه وجهاده بسبب بلوغه سنَّ الشيخوخة، فغضب وقال لهم: «إن كل من يقول لى هذا الكلام لا يريد خيراً لى، لأن ما أسير فيه إنما هو طريق الخير، ولا ينبغي لأحد أن ينهانى عن سلوكه، وكل من يحاول ذلك فهو عدو لى»^(١).

وأختم بموقف جميل له أثناء التحقيق معه، إذ خاطبه «جرازيانى» قائد الحملة الصليبية الإيطالية فى ليبيا وكان عمر المختار آنذاك ٧٣ سنة.

- هل سمعت ما ينسب إليك من تهمة خطيرة؟

- نعم، وسأجيب عنها كلها واحدة واحدة مهما كبرت وخطرت.

وانطلق المختار يقص مأساة ليبيا منذ الاحتلال، والمفاوضات التى دعاه إليها رجال الاحتلال، والوعود الكاذبة والنكث بها، وتكلم عن الظلم والطغيان والاعتصام وانتهاك الحرمات وتحقير المقدسات..

- هل أنت قائد العصيان ضد إيطاليا؟

- نعم، أنا هو.

- هل حاربت الدولة الإيطالية؟

- نعم حاربتها.

(١) «القدوة الصالحة»: ١٨٨.

- إنى أكرر السؤال عليك فانتبه لتنتأجه: هل حاربت الدولة الإيطالية فتناولت السلاح فى وجه قواتها واشتركت فى قتالها فعلياً؟

- نعم، نعم، نعم.

- كم هو عدد المعارك التى اشتركت فيها من سنة ١٩١١^(١) حتى

اليوم؟

- لا أذكر عددها لأنها كثيرة لا تحصى..

- منذ كم تتولى قيادة العصيان؟

- منذ عشر سنوات.

وعلى هذا المنوال سارت المحكمة كلها..

وكان جرازيانى قد عرض عليه عفواً شاملاً لقاء أن يكتب للمجاهدين يدعوهم إلى وقف القتال وتسليم أنفسهم وأسلحتهم للحكومة، فرفض المختار قائلاً إن هذا العمل لا يرضى ضميره ودينه^(٢).

ثم أعدم بعد ذلك ثابتاً راسخاً مؤمناً، رحمه الله تعالى ورضى عنه.

٨- وأما المثال الثالث فهو الأستاذ سيد قطب - رحمه الله تعالى - فقد

لحق بربه شاهداً على الطغيان، حيث حاول الظالمون «محاولات جاهدة يائسة للحصول من سيد قطب على موقف تراجع، أو كلمة اعتذار، أو

(١) وهى سنة الاحتلال الإيطالى البغيض.

(٢) «القدوة الصالحة»: ١٨٩-١٩١ بتصرف.

الثبات

عبارة اعتراف مما نسب إليه، أو صيغة تأييد... وعرضوا عليه مغريات مادية كثيرة، وساموه مساومات عديدة، منوه أن يعطوه كل ما يريد من متع دنياهم، ولكنه استعلى على هذه المغريات.. وأثر أن يذهب إلى ربه شهيداً عزيزاً كريماً، اختار الدار الآخرة الباقية على الدنيا الفانية، وأطلق عبارات تقطر عزة وكرامة، وإيماناً و يقيناً، وثباتاً واستعلاء، منها قوله:

«إن حُكِمْتُ بحق فأنا أرضى حكم الحق، وإن حُكِمْتُ بباطل فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل.

وقوله:

إن إصبع السبابة الذى يدين لله بالوحدانية فى الصلاة ليرفض أن يكتب حرقاً يقر به حكم طاغية»^(١).

ولو ذهبت أستقصى صور الثبات على الحق عند المجاهدين المسلمين فى هذا العصر لأتيت بالعجب العُجاب، لكن حسبى ما أوردته مثلاً على ما أردته، وهل الصحوة التى ننعم بها إلا نتاج ذلك الثبات العظيم؟

(١) «مدخل إلى ظلال القرآن»: ٢٥.

صور على تراجع الثبات

للشيطان على النفس البشرية مداخل تفعل الأفاعيل فى هدم الثبات^(١)، فالموفق من ثبته الله، والمخذول من اتبع الشيطان وحزبه.

قال رسول الله ﷺ: «إن مما أتخوف عليكم رجلٌ قرأ القرآن، حتى إذا رؤيت بهجته عليه وكان ردء الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله، انسلخ منه، ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك»، قال: قلت: يا نبي الله! أيهما أولى بالشرك: المرمى أو الرامى؟ قال: «بل الرامى»^(٢).

وما يجدر التذكير به أن تراجع الثبات على نوعين:

النوع الأول: ضعف بشرى يعترى بعض السالكين.

النوع الآخر: نفاق أو ردة تعترى بعض العاملين فيذهب ثباتهم والعياذ بالله.

وقد كان كلا النوعين قائماً أيام رسول الله ﷺ لكن الغالب أن تراجع الثبات كان لضعف بشرى وليس عن نفاق أو ردة، مثل ما حدث لحاطب وأبى لبابة، رضى الله عنهما، وكانت تلك الحوادث محدودة، «وكان أكثرها ينتهى بعودة أصحابها عن خطئهم، ومبادرتهم إلى التوبة والإنبابة

(١) سيأتى ذلك بالتفصيل - إن شاء الله تعالى - فى مبحث قادم.

(٢) ذكر ابن كثير - رحمه الله تعالى - أن هذا الحديث رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى

مسنده، وذكر أن إسناده جيد، انظر «تفسير القرآن العظيم»: ٥٠٩/٣.

من غير إصرار على موقف أو استمرار فيه، وكان يتجلى من خلالها صفاء السريرة، وسلامة المقصد، وأصالة المعدن، والحرص على وحدة الصف والتزام الجماعة، كما كان يظهر كذلك مظهر آخر من مظاهر العافية يتجلى في إنكار الجماعة المسلمة كلها لموقف الخارجين على الجماعة، وفي هذا ما فيه من عقوبة رادعة وممانعة من انتشار الظاهرة^(١).

من صور عدم الثبات على الحق

١- قصة بلعام بن باعوراء:

وقصته قد وردت في كتب التفسير والسير، وهي طويلة معدودة -في تفاصيلها- من الإسرائيليات، لكن خلاصة أمره الذي ذكره بعض السلف كابن عباس وابن مسعود -رضى الله عنهم- أنه رجل من علماء بني إسرائيل يعلم اسم الله الأعظم، وكان مقيماً في بيت المقدس مع الجبارين، وكان مجاب الدعوة يقدمه قومه في الشدائد، ثم جرى له مع موسى عليه الصلاة والسلام حوادث انسلخ على إثرها من دينه -والعياذ بالله تعالى- وكان ذلك من أثر الشيطان في نفس بلعام الضعيفة الخائرة، قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦]^(٢).

(١) «التساقطون على طريق الدعوة»: ٤٢.

(٢) وانظر تفاصيل قصته في «تفسير القرآن العظيم»: ٥٠٧/٣ - ٥١٣.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

«شبه سبحانه من آتاه كتابه وعلمه العلم الذى منعه غيره فترك العمل به واتبع هواه وآثر سخط الله على رضاه، ودينه على آخرته، والمخلوق على الخالق، بالكلب الذى هو من أخبث الحيوانات وأوضعها قدراً، وأخسها نفساً... وأشدّها شرّها وحرّاً... وفى تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب فى حال لهشه سرُّ بديع، وهو أن هذا الذى حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه إنما كان لشدة لهفه على الدنيا لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة فهو شديد اللفه عليها...»^(١).

٢- عبید الله بن جحش:

كان قد أسلم قديماً، وهاجر مع زوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان - رضى الله عنها- إلى الحبشة الهجرة الثانية، فتنصّر وارتدّ عن الإسلام، وتوفى بأرض الحبشة. وقد حكّت أم حبيبة قصة زوجها عبید الله بن جحش فقالت:

«رأيت فى النوم عبید الله بن جحش -زوجى- بأسوأ صورة وأشوهها، ففزعت فقلت: تغيّرت -والله- حاله، فإذا هو يقول حيث أصبح: يا أم حبيبة: إنى نظرت فى الدين فلم أر خيراً من النصرانية، وكنت قد دنت بها ثم دخلت فى دين محمد، ثم رجعت إلى النصرانية،

(١) «إعلام الموقعين»: ١/١٦٥ - ١٦٦.

فقلت: والله ما خيرٌ لك، وأخبرته بالرؤيا التي رأيت له فلم يحفل بها، وأكبَّ على الخمر حتى مات»^(١).

٣- الرَّحَّالُ بنُ عُنْفُوَّة:

وفد على النبي ﷺ في وفد بني حنيفة ومعهم مسيلمة، فأتى رسول الله ﷺ في رجال معه فأسلم وتشهد شهادة الحق، وأقام أياماً يختلف إلى رسول الله ﷺ - وكان يتعلم القرآن من أبي بن كعب، ثم انقلب إلى بلده وادَّعى مسيلمة الكذاب - لعنه الله - النبوة، وشهد له الرَّحَّالُ بنُ عُنْفُوَّة كذباً أن النبي ﷺ - أشركه في الأمر، فافتن الناس به^(٢)، وكانت تلك ردةً من الرَّحَّالِ بنِ عُنْفُوَّة، ومات قتيلاً على الكفر - والعياذ بالله تعالى - بعد ذلك في حروب الردة.

٤- النعمان بن محمد المغربي، قاضي الدولة العبيدية:

قال الذهبي: «كان مالكيًّا فارتد إلى مذهب الباطنية، وصنف لهم أسَّ الدعوة، ونبذ الدين وراء ظهره، وألَّف في المناقب والمثالب^(٣)، وردَّ على أئمة الدين، وانسلخ من الإسلام فسحقاً له وبعداً، وناقق الدولة، لا بل وافقهم... وله يد طولى في فنون العلم والفقهِ والاختلاف، ونقَّس طويل في البحث، فكان علمه وبالاً عليه»^(٤).

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد: ٩٦/٤ - ٩٧.

(٢) انظر الطبقات الكبرى: ٣١٦/١ - ٣١٧.

(٣) أى مساوئ الصحابة، بزعمه، قبحه الله.

(٤) انظر «نزهة الفضلاء»: ١١٦٠/٢.

٥- ابن السقاء:

كان من الطلبة الذين يحضرون حلق العلم، وكان مقرئاً مجوداً، حافظاً للقرآن، فحضر يوماً حلقة شيخ الإسلام أبي يعقوب الهمداني^(١) فقام وأدى الشيخ، «وسأله عن مسألة، فقال: اجلس، إني أجد من كلامك رائحة الكفر، ولعلك تموت على غير الإسلام، فاتفق أن ابن السقاء ذهب في صحبة رسول طاغية الروم وتنصر بقسطنطينية»^(٢).

وروى في القسطنطينية مريضاً على دكة فسئل: هل القرآن باق على حفظك؟ قال: ما أذكر منه إلا آية واحدة: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢]، والباقي نسيته^(٣)، نعوذ بالله من المكر.

٦- المنصور على بن أيك:

ملك على المماليك بعد وفاة أبيه، وكان عمره خمسة عشر عاماً، ثم لم يلبث أن عزل، وتملك المظفر قطز، فذهب المنصور على هذا إلى القسطنطينية وتنصر هنالك -والعياذ بالله- وعاش بها طويلاً ورزق أولاداً نصارى، وسمى نفسه ميخائيل.

(١) يوسف بن أيوب بن يوسف شيخ مرو وعالمها، توفي سنة ٥٣٥، انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٦٦/٢٠ - ٦٩.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ٣/١٤٠٣ - ١٤٠٤.

(٣) المصدر السابق.

قال الإمام الذهبي رحمه الله تعالى:

نعوذ بالله من الشقاء، فهذا بعد سلطنة مصر كفر وتعثر^(١).

٧- عبدالله القصيمي:

وهذا مثال من المُحدثين الزائعين، الذين ضلوا بعد هداية، وزاغوا بعد استقامة، وهو رجل قد «نال من العلم كثيراً، وبرع فيه خاصة علم العقيدة^(٢)»، وأثنى عليه معاصروه، وجرّد قلمه في الرد على مخالفي أهل السنة والجماعة، وعلى القادحين في الإمام محمد بن عبد الوهاب، فرد على الدجوى^(٣) في كتابه «البيارق النجدية» وألف كتابه: «الفصل الحكم بين الوهابيين ومخالفهم»، وله كتاب عن الوثنية..

قال عنه معاصروه: إننا لم نره قط إلا وقد تأبط كتاباً، وكان مولعاً بقراءة صحيح البخارى^(٤).

ثم إنه ارتدّ -والعياذ بالله تعالى- عن الإسلام، وانتكس انتكاسة الأبد، وقد ذُكر في ذلك أسباب قلبية كالحسد والمبالغة في الثناء على النفس^(٥)، والقلوب بيد الله تعالى.

(١) «نزّهة الفضلاء»: ٣ / ١٥٩٥.

(٢) أى العلم الظاهر الذى لا يؤثر على سلوك صاحبه تأثيراً عاصماً من الضلال والعياذ بالله، أما من تمكن فى العلم، وسلك سلوك المتقين بنفس خاشعة مسلمة إلى مولاها فإنه لا يزيغ بإذن الله زيعاً يؤدي به إلى الكفر، والعياذ بالله.

(٣) هو أحد شيوخ الأزهر. (٤) «من أخبار المتكسين»: ٢٣٠.

(٥) «من أخبار المتكسين»: ٢٣٠ - ٢٣١.

وانظر كتاب «ليلة فى جاردن سیتی» للشيخ أبى عبدالرحمن بن عقيل الظاهرى ففیه بعض أخبار ذلك الهالك.

وقد بلغنى أنه قد مات عن قريب، فإن مات على ما كان عليه بعد رده فقد خسر خسارة الأبد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

٨- أمل دنقل:

نشأ فى بيت علم، وكان والده من الصالحين؛ علمه القرآن، ثم إن أملاً هذا أمّ - حال شبابه - بالناس، وخطب بهم بعض جمع، ثم إنه انتكس وصار حدائياً ملتزماً بذلك المذهب الأدبى الضال، وأصبح متسكعاً فى المقاهى، معاقراً بنت الحان - الخمر - وسقط فى وحل المخدرات، وتلبسته أمراض معضلة مات على إثرها ضالاً، والعياذ بالله تعالى.

وكان بذى اللسان، سئى الأخلاق، ولا حول ولا قوة إلا بالله^(١).

وإليك أخى القارئ نبذاً من بذااته وشطحاته الكفرية: «المجد للشيطان معبود الرياح. من قال لا فى وجه من قالوا نعم^(٢). من علم الإنسان تمزيق العدم. من قال لا فلم يم^(٣). خصومة قلبى مع الله ليس سواه^(٤)».

«حاذيتُ خطو الله: لا أمامه ولا خلفه^(٥)».

وهنالك أمثلة أخرى - أخى القارئ - على تراجع الثبات سترد فى مبحث قادم: عوامل هدم الثبات، إن شاء الله تعالى.

(١) تلك الأخبار مروية عن زوجه عبلة الروينى فى كتابها: «الجنوبى: أمل دنقل».

(٢) يشير إلى رفض الشيطان السجود لآدم.

(٣) يشير إلى أن إبليس لما رفض السجود خُلد فى الدنيا.

(٤) «أمل دنقل: الأعمال الشعرية الكاملة»: ٣٤٤.

(٥) المصدر السابق: ١٨٠.

عوامل بقاء الثبات

لله جنود تثبت العبد وتأخذ بيده إلى خيري الدنيا والآخرة، ومن هذه الجنود:

١- الدعاء:

وهو السلاح الأمضى، والعامل الأقوى، وله فعله في النفوس، يثبتها ويقومها، وحسبك أن النبي ﷺ كان يكثر من الدعاء بالثبات ويعلمه أمته، فمن تلك الأدعية:

أ- «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد»^(١).

ب- «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»^(٢).

ج- «يا ولي الإسلام وأهله ثبتني به حتى ألقاك»^(٣).

د- «اللهم رب جبريل وميكائيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون،

(١) قال الإمام الهيثمي: أخرجه الإمام الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه موسى بن مطير، وهو متروك، انظر «مجمع الزوائد»: ١٧٦/١٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد وإسناده حسن، كما ذكر الإمام الهيثمي في «مجمع الزوائد»: ١٧٨/١٠.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات كما ذكر الإمام الهيثمي في «مجمع الزوائد»: ١٧٨/١٠.

اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(١).

قال الإمام النووي:

قوله ﷺ: «اهدنى لما اختلف فيه من الحق...» معناه ثبتنى عليه، كقوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢).

هـ- عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان النبى ﷺ يدعو يقول:
«رب أعنى ولا تُعنِ علىَّ، وانصرنى ولا تنصر علىَّ، وامكر لى ولا تمكر علىَّ، واهدنى ويسر لى الهدى، وانصرنى على من بغى علىَّ، رب اجعلنى لك شكاراً، لك ذكراً، لك رهاباً، لك مطوعاً، لك مخبئاً، إليك أوهاً منيباً، رب تقبل توبتى، واغسل حوبتى^(٣)، وأجب دعوتى، وثبت حجتى، وسدد لسانى، واهد قلبى، واسلل سخيمة^(٤) صدرى»^(٥).

و- وانظر إلى هذا الحديث المهم فى هذا الباب:

عن شهر بن حوشب قال: قلت لأُم سلمة: يا أم المؤمنين! ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ، إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه:

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه فى كتاب صلاة المسافر وقصرها: باب صلاة النبى ﷺ ودعاؤه.

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووى»: ٦ / ٣٩١.

(٣) الحوب: الإثم، وانظر «لسان العرب»: ح و ب.

(٤) السخيمة: الغش والغل والحقد. وانظر «لسان العرب»: س خ م.

(٥) أخرجه الإمام الترمذى فى سننه: أبواب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب ١١٤، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك. قالت: قلت: يا رسول الله، ما لأكثر دعائك يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك؟ قال: «يا أم سلمة. إنه ليس آدمى إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ»، فتلا معاذ^(١) قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]^(٢).

وقد قال الله - تعالى - معلماً المؤمنين الدعاء بالثبات:

﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ [البقرة: ٢٥٠].

وقال سبحانه مشيئاً على الثابتين: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابَ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦ - ١٤٨].

وقال تعالى فى الحديث القدسى:

(١) هو أحد الرواة فى سند الحديث.

(٢) الحديث أخرجه الإمام الترمذى فى سننه: أبواب الدعاء عن رسول الله ﷺ: الباب ٩٥، وقال: هذا حديث حسن.

«يا عبادى كلکم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدکم»^(١)، أى ادعونى بطلب الهداية والثبات عليها.

٢- تدبر القرآن:

القرآن العظيم مصدر تثبيت وهداية، وذلك لما فيه من قص قصص الأنبياء مع أقوامهم، ولما فيه من ذكر مآل الصالحين، ومصير الكافرين والجاحدين والمعاندين، ولما فيه -أيضاً- من ذكر تثبيت الله لرسله وأوليائه بأساليب متعددة. فالقارئ للقرآن العظيم بتدبر وإيمان يرزقه الله تعالى الثبات ويهديه طريق الرشاد، وهاك أخى القارئ بعضاً من تلك الآيات الكريمة:

قال الله تعالى:

١- ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢].

٢- ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرْذُوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩-١٥٠].

٤- ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فَوَدَّكَ﴾ [هود: ١٢٠].

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه: كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم الظلم.

٥- ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢].

٦- ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٤٣].

﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٥].
 ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ﴾ [الحج: ١١].

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ [العنكبوت: ١٠].

وقد قال النبي ﷺ: «... إن هذا القرآن طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به، فإنكم لن تهلكوا ولن تضلوا بعده أبداً»^(١).

٢- حسن الصلوة بالله تعالى:

فالله تعالى: ﴿ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥].

وقال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

(١) قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح. انظر «مجمع الزوائد»:

والله تعالى: ﴿مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقال عز من قائل: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

«وتحت قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ كثر عظيم، من وفق لمظنته^(١) وأحسن استخراجاه واقتناؤه وأنفق منه فقد غنم، ومن حرمه فقد حرم، وذلك أن العبد لا يستغنى عن تثبيت الله له طرفة عين، فإن لم يثبته وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما، وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

وقال تعالى لأكرم خلقه: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

وقال تعالى لرسوله: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].، فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت، ومادة التثبيت أصله ومنشأه من القول الثابت وفعل ما أمر

(١) أى لكان وجود ذلك الكثر.

به العبد، فبهما يثبت الله عبده، فكل من كان أثبت قولاً وأحسن فعلاً كان أعظم تثبيتاً، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيْتًا﴾ [النساء: ٦٦].

فأثبت الناس قلباً أثبتهم قولاً، والقول الثابت هو القول الحق والصدق، وهو ضد القول الباطل الكذب، فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له، وأثبت القول كلمة التوحيد ولوازمها، فهي أعظم ما يثبت الله بها عبده في الدنيا والآخرة. . فما منح العبد منحة أفضل من منحة القول الثابت، ويجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج ما يكونون إليه في قبورهم ويوم معادهم. . وقد جاء هذا مبيناً في أحاديث صحاح^(١).

وقال سيد رحمه الله تعالى:

«يثبت الله الذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة، بكلمة الإيمان المستقرة في الضمائر، الثابتة في الفِطْر، المثمرة بالعمل الصالح المتجدد الباقي في الحياة، ويثبتهم بكلمات القرآن وكلمات الرسول، وبوعده الحق بالنصر في الدنيا والفوز في الآخرة، وكلها كلمات ثابتة صادقة حقة لا تتخلف ولا تتفرق بها السبل، ولا يمس أصحابها قلق ولا حيرة ولا اضطراب»^(٢).

(١) «إعلام الموقعين»: ١ / ١٧٦-١٧٧.

(٢) «في ظلال القرآن»: نقلا عن: «من ركائز الدعوة» للهلالى: ٢٢٢.

وقال تعالى: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾
[الأنعام: ٣٩].

فالله -إذاً- هو المثبت والهادى لأولياته، وهو المضل المقلق لأعدائه سبحانه وتعالى.

وحسن الصلة بالله تعالى لها صور كثيرة دالة عليها، مثل ذكر الله تعالى كثيراً، وجميل التوكل عليه، وكمال الإنابة إليه، واستشعار معيته، والرغبة فيما عنده، والخوف منه والخشية سبحانه وتعالى، وهناك كثير من جوانب الإسلام ينتظمها حسن الصلة بالله تبارك وتعالى.

وانظر إلى ما حدث بين أبي سفيان -رضى الله تعالى عنه- وبين هرقل من محاوراة طويلة وردَّ فيها كلامٌ جميلٌ متعلق بالثبات وذلك حين سأل هرقل أبا سفيان:

«فهل يرتد أحد منهم^(١) سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟

قال أبو سفيان: لا.

قال هرقل: وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب»^(٢).

(١) أى من أصحاب النبي ﷺ.

(٢) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه: مقدمة الكتاب: ٥/١ وما بعدها. والمعنى: يشرح الإيمان القلوب التى يدخل فيها. انظر: «فتح البارى»: ٧٦/١.

فمن فهم الإسلام وحسنت صلته بالرحمن لا يمكن أن يترد عن دينه أبداً إلا أن يشاء الله .

٤- التثبيت من قبل الصالحين:

وهذا من أعظم الأمور المساعدة على الثبات؛ إذ الصالحون يراقب بعضهم بعضاً، فإن ضعف أحدهم أو انحرف هبوا لمساعدته والوقوف بجانبه .

وقد قال رسولنا ﷺ:

«المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه»^(١) .

وقال عليه الصلاة والسلام:

«الدين النصيحة». قلت: لمن يا رسول الله؟ قال: «الله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(٢) .

وإليك أخى القارئ بعض الصور والأحداث الدالة على أهمية تثبيت المسلم لأخيه وشد أزره .

أ- قال الله تعالى قاصاً كلام موسى عليه الصلاة والسلام:

(١) أخرجه أبو داود فى سننه، كتاب الأدب، باب: فى النصيحة والحياطة: ٢٨٠ / ٤ : رقم ٤٩١٨ .

(٢) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه: كتاب الإيمان: باب بيان أن الدين النصيحة: ٧٤ / ١ - ٧٥ رقم ٥٥ .

﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِى (٢٩) هَرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَى نَسِيْحَكَ كَثِيْرًا (٣٣) وَنَذْرَكَ كَثِيْرًا﴾ [طه: ٢٩-٣٤].

ب- وقد جرت حادثة عظيمة أيام رسول الله ﷺ، وقد لطف الله بالمسلمين إذ ثبتهم برسوله، ﷺ، على الحق فثبتوا:

قال ابن إسحاق:

«مرَّ شاس بن قيس (١) - وكان شيخًا قد عسا (٢)، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم - على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاضه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بنى قيلة (٣) بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شابًا من يهود كان معهم، فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بعثت وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، وكان يوم بعثت يومًا اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج... ففعل، فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا حتى تواتب رجالان من

(١) أحد يهود المدينة.

(٢) أى أسن وكبير.

(٣) أى الأئصار، وكانوا ينسبون إلى أهم قيلة.

الحيين على الركب... فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جذعة^(١)، فغضب الفريقان جميعاً وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة -والظاهرة: الحرة- السلاح السلاح، فخرجوا إليها^(٢).

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ - فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال: «يا معشر المسلمين! الله الله، أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بين قلوبكم» فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس^(٣).

فانظر أخى القارئ كيف ثبت رسول الله ﷺ - الأنصار، وحماتهم الله تعالى برسوله ﷺ - من فتنة هوجاء.

وفى التاريخ الإسلامى حادثتان جميلتان صالحتان لهذا السياق، مأثورتان عن الملمم المحدث الفاروق عمر، رضى الله تعالى عنه:

(١) أى رددنا ما كان قد حصل من المعركة مرة أخرى.

(٢) أ رأيت أخى القارئ كيف حرش اليهودى بين المسلمين، وهذا ديدنهم فى كل زمان ومكان.

(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام: ٥٥٥/١ - ٥٥٧.

ج- أما الحادثة الأولى فقد ساقها الإمام ابن كثير فى ثنايا تفسير قول الله تعالى: ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [غافر: ٣] فقال:

«عن يزيد بن الأصم قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس، وكان يفتد إلى عمر بن الخطاب، ففقد عمر فقال: ما فعل فلان بن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، يتابع فى هذا الشراب. قال: فدعا عمر كاتبه، فقال: اكتب: «من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان، سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب، ذى الطول، لا إله إلا هو إليه المصير». ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه، وأن يتوب (الله) عليه. فلما بلغ الرجل كتاب عمر جعل يقرؤه ويردده، ويقول: غافر الذنب، وقابل التوب [شديد العقاب]، قد حذرني عقوبته، ووعدني أن يغفر لى.

ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث جعفر بن برقان، وزاد: «فلم يزل يرددها على نفسه، ثم بكى، ثم نزع فأحسن النزع^(١)، فلما بلغ عمر خبره قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أحاكم زل زلة فسددوه ووقفوه، وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه»^(٢).

(١) قال محقق التفسير: هذا أسلوب تمثيل، فيه تصوير من رجع إلى الشريعة، يأخذ منها، بمن ينزع الدلو من البئر - أى: يجذبها - فيحسن النزع.

(٢) «تفسير القرآن العظيم»: ١١٨/٧.

د- أما الحادثة الأخرى فقد ذكر ابن إسحاق أن عمر بن الخطاب، وعياش بن أبي ربيعة المخزومي خرجا حتى قدما المدينة «فحدثني نافع مولى عبد الله بن عمر، عن عبد الله بن عمر، عن أبيه عمر بن الخطاب، قال: اتعدت، لما أردنا الهجرة إلى المدينة، أنا وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاصي بن وائل السهمي التناضب^(١) من أضاة^(٢) بنى غفار، فوق سرف^(٣)، وقلنا: أينما لم يصبح عندها فقد حُبس فليمض صاحباه، قال: فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب، وحبس عنا هشام، وفتن فافتن.

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بنى عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما، حتى قدما علينا المدينة، ورسول الله ﷺ بمكة، فكلماه وقالوا: إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل من شمس حتى تراك، فرق لها، فقلت له: يا عياش، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو قد أذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت. قال: فقال: أبر قسم أمي، ولي هنالك مال فأخذه. قال: فقلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالا، فلك نصف مالى ولا تذهب معهما. قال: فأبى على إلا أن

(١) قال محقق السيرة: «التناضب»، يقال: هو اسم موضع، ومن رواه بالكسر؛ فهو جمع تنضب وهو شجرة، واحدته تنضبة.

(٢) قال محقق السيرة: أضاة بنى غفار: على عشرة أميال من مكة.

(٣) قال محقق السيرة: سرف: موضع على ستة أميال من مكة.

يخرج معهما؛ فلما أبى إلا ذلك؛ قال: قلت له: أما إذ قد فعلت ما فعلت، فخذ ناقتي هذه، فإنها ناقة نجبية ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب، فانج عليها.

فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال له أبو جهل: يابن أخي، والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟ قال: بلى. قال: فأناخ، وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه، فأوثقاه وربطاه، ثم دخلا به مكة، وفتناه فافتن.

قال ابن إسحاق: فحدثني به بعض آل عياش بن أبي ربيعة: أنهما حين دخلا به مكة دخلا به نهاراً موثقاً، ثم قالوا: يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهاثكم، كما فعلنا بسفيهننا هذا.

قال ابن إسحاق: وحدثني نافع، عن عبد الله بن عمر، عن عمر في حديثه، قال: فكنا نقول: ما الله بقابل لمن افتتن صرفاً ولا عدلاً ولا توبة، قوم عرفوا الله، ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم! قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم. فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، أنزل الله تعالى فيهم، وفي قولنا وقولهم لأنفسهم، ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿ [الزمر: ٥٣-٥٥].

قال عمر بن الخطاب: فكتبتها بيدي في صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاصي قال: فقال هشام بن العاصي: فلما أتتني جعلت أقرؤها بذي طوى^(١)، أصعد بها فيه وأصوب ولا أفهمها، حتى قلت: اللهم فهمنيها. قال: فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا ويقال فينا.

قال ابن هشام: فحدثني من أثق به: أن رسول الله ﷺ قال، وهو بالمدينة: من لى بعباش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاصي؟ فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة: أنا لك يا رسول الله بهما، فخرج إلى مكة، فقدمها مستخفياً، فلقي امرأة تحمل طعاما، فقال لها: أين تريدين يا أمة الله؟ قالت: أريد هذين المحبوسين -تعنيهما- فتبعها حتى عرف موضعهما، وكانا محبوسين في بيت لا سقف له، فلما أمسى تسور عليهما، ثم أخذ مروة^(٢) فوضعها تحت قيديهما، ثم ضربهما بسيفه فقطعهما، فكان يقال لسيفه: «ذو المروة» لذلك، ثم حملهما على بعيره، وساق بهما، فعثر فدميت أصبعه، فقال:

هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت
ثم قدم بهما على رسول الله ﷺ المدينة^(٣).

(١) قال محقق السيرة: موضع بأسفل مكة.

(٢) قال محقق السيرة: المروة: الحجر.

(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام: ٤٧٦/١.

هـ- وهذه صورة أخرى على التثبيت من قبل الصالحين جرت زمان الإمام أحمد، رحمه الله تعالى فى الفتنة التى تعرض لها:
قال أبو جعفر الأنبارى:

«لما حُمِلَ أحمد إلى المأمون أُخبرتُ فعبرتُ الفرات، فإذا هو جالس فى الخان، فسلمت عليه، فقال: يا أبا جعفر: تَعَنَيْتَ^(١)، فقلت: يا هذا: أنت اليوم رأس، والناس يقتدون بك، فوالله لئن أُجبت إلى خلق القرآن ليجينَّ خلقٌ، وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق كثير، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فإنك تموت لابد من الموت، فاتق الله ولا تُجِبْ، فجعل أحمد يبكى ويقول: ما شاء الله، ثم قال: يا أبا جعفر، أعد علىَّ، فأعدت عليه وهو يقول: ما شاء الله»^(٢).

و- ومما يجرى المجرى نفسه ما ذكره الذهبى أن الإمام أحمد قال:

«لست أبالى بالحبس ما هو ومنزلى إلا واحد، ولا قتلاً بالسيف، إنما أخاف فتنة السوط، فسمعه بعض أهل الحبس فقال: لا عليك يا أبا عبد الله، فما هو إلا سوطان ثم لا تدرى أين يقع الباقي، فكأنه سُرى عنه»^(٣).

(١) أى تعبت.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ٨٢٢/٢.

(٣) المصدر السابق.

ز- وقال له محمد بن نوح:

«يا أبا عبد الله: الله الله، إنك لست مثلي، أنت رجل يُقتدى بك، قد مدَّ الخلق أعناقهم إليك لما يكون منك، فاتق الله واثبت لأمر الله»^(١).

ح- وهنالك مثال جميلٌ من تاريخنا الإسلامي حدث أيام محنة القول بخلق القرآن، حيث دُعي الإمام الحافظ عَفَّان بن مسلم للقول بخلق القرآن فأبى، وإليك أخى القارئ ما جرى له:

قال إبراهيم بن ديزيل:

«لما دُعي عفان للمحنة كنت آخذًا بلجام حماره، فلما حضر عرض عليه القول، فامتنع أن يجيب، فقبل له: يُحبس عطاؤك - وكان يُعطي في كل شهر ألفَ درهم - فقال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] فلما رجع إلى داره عذله نساؤه ومن في داره - وكان في داره نحو أربعين إنساناً - فدق عليه داقُ الباب، فدخل عليه رجلٌ شبهته بسمان أو زيات، ومعه كيس فيه ألف درهم، فقال: يا أبا عثمان، ثبتك الله كما ثبت الدين، وهذا في كل شهر»^(٢).

ط- تثبيت القاضي الفاضل^(٣) صلاح الدين الأيوبي:

(١) المصدر السابق.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ٧٦٢/٢.

(٣) هو الشيخ عبد الرحيم بن علي بن حسن اللخمي الشاميّ البيساني، توفي سنة ٥٩٠ - رحمه الله تعالى - في مصر: انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٣٣٨/٢١ وما بعدها.

كان صلاح الدين الأيوبي محاصراً الصليبيين في عكا ثلاث سنين متصلة، في أحوال عصيبة، وقوارع مخيفة^(١)، وكان وزيره القاضي الفاضل مرافقاً ابن صلاح الدين الوالي على مصر من قبل أبيه، فافتقد صلاح الدين أهم عضد له ونصير آلا وهو القاضي الفاضل - كما هو معروف من سيرتهما - لكن القاضي الفاضل كان يُرسل لصلاح الدين رسائل رائعة من مصر يثبته ويقوى عزمه، وكان صلاح الدين يثبه همومه وآلامه، وكانت تلك الرسائل من أجمل وأحسن وأبلغ رسائل التثبيت، وإليك - أخي القارئ - بعضها:

كان صلاح الدين - رحمه الله تعالى - قد استبطأ النصر، فأرسل إليه القاضي الفاضل - رحمه الله تعالى - قائلاً:

«إنما أتينا من قبل أنفسنا، ولو صدقناه لعجل لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا، ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به، فلا يستخضم أحد إلا عمله، ولا يلم إلا نفسه، ولا يرجُ إلا ربه، ولا تنتظر العساكر أن تكثر، ولا الأموال أن تحضر، ولا فلان الذي يُعتقد عليه أن يقاتل، ولا فلان الذين ينتظر أنه يسير، فكل هذه مشاغل عن الله ليس النصر بها ولا نأمن أن يكلنا الله إليها، والنصر به، واللطف منه، والعادة الجميلة له، ونستغفر الله - سبحانه - من ذنوبنا فلولا أنها مسدُّ طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل، وفيض دموع الخاشعين قد غسل، ولكن في الطريق عائق، خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق».

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب «مختصر الروضتين في أخبار الدولتين»: ٢٧٩ - ٣٤٧.

ومن كتاب آخر:

«وعسكرنا لا يشكو - والحمد لله - منه خوراً، وإنما يشكو منه ضجراً، والقوى البشرية لا بد أن يكون لها حد، والأقدار الإلهية لها قصد، وكل ذى قصد خادم قصدها، وواقف عند حدها، وإنما ذكر المملوك هذا ليرفع المولى من خاطره مقت المتعاس من رجاله، كما يثبت في شكر المسارع من أبطاله، قال الله - تعالى - : ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

يا مولانا: أليس الله - تعالى - اطلع على قلوب أهل الأرض فلم يؤهل ولم يستصلح ولم يختر ولم يُسهل ولم يستعمل ولم يستخدم فى إقامة دينه وإعلاء كلمته وتمهيد سلطانه وحماية شعاره وحفظ قبله موحيه إلا أنت، هذا وفى الأرض من هو للنبوة قرابة، ومن له المملكة وراثه، ومن له فى المال كثرة، ومن له فى العدد ثروة، فأقعدهم وأقامك، وكسلهم ونشطك، وقبضهم ويسطك، وحبب الدنيا إليهم وبغضها إليك، وصعبها عليهم وهونها عليك، وأمسك أيديهم وأطلق يدك، وأغمد سيوفهم وجرّد سيفك، وأشقاهم وأنعم عليك، وثبطهم وسيرك: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاتَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

نعم وأخرى أهم من الأولى أنه لما اجتمعت كلمة الكفر من أقطار الأرض وأطراف الدنيا ما تأخر منهم متأخر ولا استبعد المسافة بينك

وبينهم مستبعد، وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة لا أموال تنفق فيهم، ولا ملوك تحكم عليهم، ولا عصا تسوقهم، ولا سيف يزعجهم، مُهْطَعِين^(١) إلى الداعي، ساعين في أثر الساعي، وهم من كل حذب ينسلون^(٢)، ومن كل بر وبحر يقبلون، كنت يا مولانا - كما قيل - أبقاك الله:

ولست بملك هازم لنظيره ولكنك الإسلام للشرك هازم

هذا وليس لك من المسلمين كافة مساعدة إلا بدعوة، ولا مجاهد معك إلا بلسانه، ولا خارج معك إلا بهم، ولا خارج بين يديك إلا بالأجرة، ولا قانع منك إلا بزيادة، تشتري منهم الخطوات شبراً بذراع، وذراعاً بباع، تدعوهم إلى الله وكأنما تدعوهم إلى نفسك، وتسالهم الفريضة كأنك تكلفهم النافلة، وتعرض عليهم الجنة وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم.

والآراء تختلف بحضرتك، والمشورات تتنوع بمجلسك، فقائل: لم لا نتباعد عن المنزلة، وآخر: لم لا نميل إلى المصالحة، ومتنم على فائت ما كان فيه حظ، ومشير بمستقبل ما يلوح فيه رشد، ومشير بالتخلي عن عكا حتى كأن تركها تغليق المعاملة^(٣)، وما كأنها طليعة الجيش ولا خرزة السلك إن هت تداعى السلك، فألهمك الله قتل الكافر، وخلاف

(١) أى مسرعين: وانظر «لسان العرب»: ه ط ع.

(٢) أى من كل مرتفع من الأرض يظهرون: وانظر «لسان العرب»: ح د ب.

(٣) أى نهاية الجهاد مع الكفار.

المخذل، والتجلد وتحت قدمك الجمر، وأفرشك الطمأنينة وتحت جنبك
الوعر.

ولكن مولانا صفيحة وجهه كضوء شهاب القابس المنور

قليل التشكى للمهم نصيبه كثير الهوى شتى النوى والمسالك

لا شبهة أن المملوك قد أطل، ولكن قد اتسع المجال، وما مراده إلا أن
يشكر الله على ما اختاره له ويسره عليه، وحببه إليه، فرب ممتحن بنعمة،
ورب منعم عليه بمشقة، وكم مغبوط بنعمة هي داؤه، ومرحوم من بلوى
هي دواؤه، ويريد المملوك بهذا أن لا يتغير لمولانا -أبقاه الله- وجه عن
بشاشة، ولا صدر عن سعة، ولا لسان عن حسنة، ولا تُرى منه ضجرة،
ولا تُسمع منه نهرة، فالشدة تذهب ويبقى ذكرها، والأزمة تنفرج ويبقى
أجرها، وكما لم يحدث استمرار النعم لمولانا -عز نصره- بطراً فلا
تحدث له ساعات الامتحان ضجراً، والمملوك يستحسن بيتي حاتم،
ومولانا -أبقاه الله وخلد سلطانه وملكه- يحفظهما:

شربنا بكأس الفقر يوماً وبالغنى وما منهما إلا سقانا به الدهر

فما زادنا بغياً على ذى قرابة غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر

والمملوك بأن يسمع أن مولانا -عز نصره- على ما يعهده من سعة
صدره أسر منه بما يسمعه من بشائر نصره، وياليتنى كنت معهم، وماذا
كانت تصنع الأيام إما شيباً من مشاهدة الحروب، فقد شبننا والله من سماع

الأخبار، أو غُرماً يمكن خُلْفه من الوفّر^(١) فقد غرمنّا في بُعد مولانا ما لا خُلْف له من العمر، أو مرض جسم فخيرته ما كان الطبيب حاضرته، ولقد مرضنا أشدَّ المرض لفراقه إلا أن التجلد سآثره».

ومن كتاب آخر:

«قيل للمهلب^(٢): أيسرُكَ ظفر ليس فيه تعب؟ فقال: أكره عادة العجز.

ولا بدّ أن تنفذ مشيئة الله في خلقه، ولا رادَّ لحكمه فلا يتسخط مولانا بشيء من قدره، فلأن يجري القضاء وهو راض مأجور خير من أن يجري وهو ساخط موزور، من شكا بشه وحرزته إلى الله شكا إلى مشتكى واستغاث بقادر، ومن دعا ربه خفياً استجاب له استجابة ظاهرة، فلتكن شكوى مولانا إلى الله خفية عنا، ولا يقطع الظهور التي لا تشتدّ إلا به، ولا يُضيق صدوراً لا تنفرج إلا منه، وما شرد الكرى^(٣)، وأطال على الأفكار ليل السرى^(٤) إلا ضائقة القوت بعكا، ولم يبق إلا ضعف نعم المعين عليه ترويح النفس وإعفاؤها من الفكر، فقد علم مولانا بالمباشرة أنه لا يُدبّر الدهر إلا برب الدهر، ولا ينفذ الأمر إلا بصاحب الأمر، وأنه لا يقلّ الهم إن كثّر الفكر.

(١) الوفّر: المال الكثير: وانظر «لسان العرب»: و ف ر.

(٢) هو المهلب بن أبي صفرة القائد المعروف.

(٣) أى النعاس والنوم: وانظر «لسان العرب»: كرا.

(٤) السرى: سير عامة الليل: وانظر «لسان العرب»: سرى.

قد قلت للرجل المقسم أمره فوض إليه تم قرير العين وكل مقترح يجاب إليه إلا ثغراً يصير نصرانياً بعد أن أسلم، أو بلداً يخرس فيه المنبر بعد أن تكلم، يا مولانا: هذه الليالي التي رابطت فيها والناس كارهون، وسهرت فيها والعيون هاجعة، وهذه الأيام التي ينادى فيها: يا خيل الله اركبي، وهذه الساعات التي تزرع الشيب في الرؤوس، هي نعمة الله عليك، وغراسك في الجنة: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠] وهي مجوزاتك على الصراط، وهي مثقلات الميزان، وهي درجات الرضوان، فاشكر الله عليها كما تشكره على الفتوحات الجليلة، واعلم أن مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر.

من ربط جأش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- قوله: «لو كان الصبر والشكر بغيرين ما باليت أيهما ركبت»، وبهذه العزائم سبقونا وتركونا لا نطمع في اللحاق بالغبار، وامتدت خطاهم ونعوذ بالله من العثار، ما استعمل الله في القيام بالحق إلا خير الخلق، وقد عرف ما جرى في سير الأولين، وفي أبناء النبيين، وأن الله -تعالى- حرص نبيه ﷺ على أن يهتدى بهداهم، ويسلك سبيلهم، ويقتدى بأولى العزم منهم.

وما ابتلى الله -سبحانه- من عباده إلا من يعلم أنه يصبر، وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضاً وكأن ما قد كان لم يكن، ويذهب التعب ويبقى الأجر، وإنما يقظات العين كالحلم، وأهم الوصايا أن لا يحمل المولى همّاً يضعف به جسمه، ويضر مزاجه، والأمة بنيان وهو -أبقاه الله تعالى- قاعدته، والله يثبت تلك القاعدة القائمة في نصره الحق.

ومما يستحسن من وصايا الفرس: «إن نزل بك ما فيه حيلة فلا تعجز، وإن نزل بك ما ليس لك فيه حيلة -والعياذ بالله- فلا تجزع»، ورب واقع فى أمر لو اشتغل عن حمل الهم به بالتدبير فيه مع مقدور الله لانصرف همه، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله.

هذا سلطان هو -بحول الله- أوثق منه بسلطانه، قاتلت الملوك بطمعها وقاتل هذا بإيمانه، وإذا نظر الله إلى قلب مولانا لم يجد فيه ثقة بغيره، ولا تعويلاً على قوة إلا على قوته فهناك الفرج ميعاده، واللطف ميقاته، فلا يقنط من روح الله، ولا يقل متى نصر الله، وليصبر فإنما خلق للصبر، بل ليشكر فالشكر فى موضع الصبر أعلى درجات الشكر، ول يقل لمن ابتلى: أنت المعافى، و ليرض عن الله -سبحانه- فإن الراضى عن الله هو المسلم الراضى».

وكتب السلطان إلى القاضى الفاضل كتاباً من بلاد الفرنج يخبره عما لاح له من أمارات النصر ويقول: ما أخاف إلا من ذنوبنا أن يأخذنا الله بها. فكتب إليه الفاضل:

«فأما قول المولى: إننا نخاف أن نؤخذ بذنوبنا، فالذنوب كانت مثبتة قبل هذا المقام وفيه محيت، والآثام كانت مكتوبة ثم عفى عنها بهذه الساعات وعفيت^(١)، فيكفى مستغفراً لسان السيف الأحمر فى الجهاد، ويكفى قارعاً لأبواب الجنة صوت مقارعة الأضداد، ولعين الله موقفك، وفى سبيل الله مقامك ومنصرفك، وطوبى لقدم سعت فى منهاجك،

(١) أى زالت وذهبت: وانظر «لسان العرب»: ع ف ي.

الثبات

وطوبى لنفس بين يديك قتلت وقُتلت، وإن الخواطر تشكر الله فيك وعن شكرها لك قد شُغلت»^(١).

تلك كانت أمثلة مضيئة على تثبيت الصالحين بعضهم بعضاً فى المواقف الصعبة حتى لا يزلوا أو يتراجعوا، وهكذا ينبغى أن يفعل فى أوقات الشدائد.

وتثبيت الصالحين بعضهم بعضاً أمر مهم، إذ للشيطان على الإنسان مداخُل كثيرة، قد يتحصن الإنسان من بعضها أو أكثرها، ويدلف الشيطان من بعضها الآخر، وقد يجتمع على الإنسان من المؤثرات النفسية والحسية ما لا قبل له به فيزل أو يضعف، لذا كان واجباً على العقلاء أن يدركوا ذلك الشخص المعرض للفتن بمسيرته الأولى، وهمته السالفة، وجهده القديم، فيكونوا عوناً لأخيهم ورحمةً له.

٥- صحبة الصالحين؛

ومضمون هذه الفقرة أعم من مضمون سابقتها؛ حيث إن الفقرة السابقة تحدثت عن التثبيت من قِبَل الصالحين، سواء أحدث ذلك التثبيت من جرّاء صحبة أم لا، أما هذه الفقرة فتحدثت عن صحبة الصالحين مطلقاً، وأثرها فى الثبات.

هذا وإن من خير وسائل الثبات الصلة الحسنة بالصالحين وصحبتهم، والبعد عن الطالحين وعدم مرافقتهم ابتداءً أو تجديداً، فإن عدداً ممن صلح

(١) أثبت أكثر ما قاله القاضى الفاضل -رحمه الله تعالى- لما فيه من المعانى الرائعة المثبتة على الجهاد.

شأنه انتكس بسبب حنينه إلى رفاق السوء وإعادة الصلة بهم، أو التعرف إلى أصحاب سوء يمنونه ويضلونه، والله تعالى قد حذرنا من صحبة السوء فقال قاصاً ندم أصحاب السوء على صحبتهم:

﴿ وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً ﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

ولهذه الآية قصة مناسبة لهذا المقام، فعن ابن عباس رضی الله عنهما «أن أبا معيط كان يجلس مع النبي ﷺ بمكة لا يؤذيه، وكان رجلاً حليماً، وكان بقية قريش إذا جلسوا معه آذوه، وكان لأبي معيط خليل غائب عنه بالشام، فقالت قريش: صبا أبو معيط^(١)، وقدم خليله^(٢) من الشام ليلاً، فقال لامرأته: ما فعل محمد مما كان عليه؟ فقالت: أشد مما كان أمراً، فقال: ما فعل خليلي أبو معيط؟ فقالت: صبا، فبات بليلة سوء، فلما أصبح أتاه أبو معيط فحياه فلم يرد عليه التحية، فقال: مالك لا ترد عليّ تحيتي؟ فقال: كيف أرد عليك تحيتك وقد صبوت؟ قال: أوّقد فعلتها قريش؟ قال: نعم، قال: فما يبرئ صدورهم إن أنا فعلت؟ قال: تأتيه في مجلسه، وتبصق في وجهه، وتشتهم بأخبت ما تعلمه من الشتم، ففعل، فلم يزد النبي ﷺ أن مسح وجهه من البصاق، ثم التفت إليه فقال: إن وجدتك خارجاً من جبال مكة أضرب عنقك صبراً.

(١) أى كفر بالأصنام ودان بالإسلام.

(٢) قيل: هو أبى بن خلف.

فلما كان يوم بدر وخرج أصحابه أبى أن يخرج، فقال له أصحابه: اخرج معنا، قال: قد وعدنى هذا الرجل إن وجدنى خارجاً من جبال مكة أن يضرب عنقى صبراً، فقالوا: لك جمل أحمر لا يدرك، فلو كانت الهزيمة طرت عليه، فخرج معهم، فلما هزم الله المشركين وحل به جملة فى جدد من الأرض، فأخذ رسول الله ﷺ أسيراً فى سبعين من قريش، وقدم إليه أبو معيط، فقال: تقتلنى من بين هؤلاء؟ قال: نعم، بما بصقت فى وجهى. فأنزل الله فى أبى معيط: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتى لَيْتَنى لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جِئَنِى وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩] (١).

وقال الإمام ابن كثير:

«وسواء كان سبب نزولها فى عقبه بن أبى معيط أو غيره من الأشقياء فإنها عامة فى كل ظالم... فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم، ويعض على يديه قائلاً: ﴿يَا لَيْتَنى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتى لَيْتَنى لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً﴾ يعنى من صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق الضلالة، وسواء فى ذلك أمية بن خلف أو أخوه أبى بن خلف أو غيرهما» (٢).

(١) قال الإمام السيوطى فى هذا الأثر: أخرجه ابن مردويه وأبو نعيم فى الدلائل بسند صحيح، انظر «الدر المنثور»: ٢٥٠/٦.
(٢) «تفسير القرآن العظيم»: ١١٦/٦.

أما صحبة الصالحين ففيها خير عظيم لما تورثه من ثبات على الطريق، ومكث على الهداية، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقد بين سبحانه وتعالى أن كل العلائق بين الأصحاب مقطوعة يوم القيامة لا فائدة فيها، ولا يشفع أصحابها بعضهم لبعض إلا علائق المتقين الصالحين، فقال جل من قائل: ﴿ الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

ومن الأمور التي يجب التنبه إليها هو وجوب قطع المرء المهتدى صلته بأصحابه السابقين أهل الغواية والضلال لئلا يحنّ إلى ما كان عليه، ولازم صحبة الصالحين الأخير الابتعاد عن الأشرار الفجار:

«لقد كان الرجل حين يدخل في الإسلام يخلع على عتبه كل ماضيه في الجاهلية، كان يشعر في اللحظة التي يجيء فيها إلى الإسلام أنه يبدأ عهداً جديداً، منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية، وكان يقف من كل ما عهده في جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف، الذي يحس أن كل هذا رجس لا يصلح للإسلام، وبهذا الإحساس كان يتلقى هدى الإسلام الجديد...»

كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضى المسلم في جاهليته وحاضره في إسلامه، تنشأ عنها عزلة كاملة في صلاته بالمجتمع الجاهلي من حوله وروابطه الاجتماعية...»^(١).

(١) «معالم على الطريق»: ١٩ - ٢١.

وكثير من العاملين للإسلام يغفل عن هذا فيختلط بأهل الباطل ممن كان صاحبهم قديماً، أو أنه ينشئ علاقة جديدة معهم، وقد ينتكس -والعياذ بالله- من جراء حنينه لما هم عليه من اللهو والباطل، ولذلك «لا تستقيم قيم الإسلام في نفوسنا، ولا يتضح تصور الإسلام في عقولنا، ولا ينشأ فينا جيل ضخم من الناس من ذلك الطراز الذي أنشأه الإسلام أول مرة»^(١).

ولا يتنافى هذا مع دعوة المنحرفين إلى الرشد والصلاح؛ فإن الحديث هنا عن صحة المنحرفين واتخاذهم أولياء وبطانة، أما المكث معهم لأجل دعوتهم مع الالتزام بآداب الدعوة وشرائطها فإن مثل هذا العمل من أعظم القربات، والله أعلم.

٦- التربية الصحيحة:

الثبات دليل على حسن التربية، والتذبذب والتراجع دليل على سوء التربية، وضعف اليقين، وقلة الزاد «ويبرز هذا بشكل واضح وجليّ ودائم في حياة القادة الإداريين الذين يتولون الشؤون السياسية والاجتماعية مما يجعلهم مقطوعى الصلة بالتربية والشؤون التربوية، نظرياً وعملياً، وبالتالي يجعل علاقاتهم واجتماعاتهم وممارساتهم جافة خالية من طلاوة الربانية، وعذوبة الروحانية...»

والمسئول السياسى أو الإدارى أو الاجتماعى وغيره -وهو على ثغرة مسئوليته- قد يظن أنه بلغ سنام الأمر، وحقق ذروة النصر، من غير أن

(١) المصدر السابق: ٢١.

يحس بالخواء النفسى والروحى، والانكفاء التربوى، ومن غير أن يشعر بالتآكل الإيمانى فى حياته، وهو إن لم يفتن لذلك ويبادر لاستنقاذ نفسه فإنه ساقط لا محالة، فالإيمان كما هو معروف يزيد وينقص... والظروف السيئة التى تمر بالدعوة -أحياناً- تفرض المزيد من الاهتمام التربوى وليس العكس، لأن احتياج الناس إلى الرعاية والاهتمام والتذكير إنما يكون أكبر فى الظروف الاستثنائية.

إن منطقاً يجب رفضه بالكلية وهو منطق اعتبار بعض الأشخاص فوق التربية، أو بدون حاجة إلى التربية، أو أنهم تجاوزوا مرحلة التربية، وهذا المنطق هو الذى يورد هؤلاء الناس موارد التهلكة، ويتسبب فى إسقاطهم أو سقوطهم، إن هذا المنطق يتناقض بالكلية مع الإسلام وفلسفته التربوية التى تعتبر الإنسان فى امتحان دائم مع دعوته، وفى اختبار مستمر مع دينه، والتى تفرض عليه دوام العناية بنفسه، والرقابة لربه، والتعهد لسلوكه، والتنمية لإيمانه...»^(١).

وللتربية الصحيحة المعينة على الثبات جوانب يجب مراعاتها، ومنها:

أ- التربية الإيمانية:

وهى التى تقوى اليقين، وتعظم الأمل بالله، فصيام التطوع، والإنفاق فى وجوه الخير، وقيام الليل، وتعلق القلب بالله، واليقين بالدار الآخرة، والجزاء الكائن فيها، كل ذلك وأمثاله خير معين على الثبات حتى الممات.

(١) «المتساقطون على طريق الدعوة»: ٥١ - ٥٣.

ب- التربية الثقافية:

وتشمل الثقافة الشرعية، والثقافة الإسلامية العامة، والثقافة الإنسانية، وأحوال الأمم من حولنا، وهاتان الأخيرتان مفيدتان جداً في تثبيت المرء، إذ معرفة التخطب الشامل الذي تعيشه الأمم من حولنا معين لنا على التمسك بدين الإسلام والثبات عليه.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٠، ١١].

لابد أن نحيط «بثقافة عصرنا وحضارته، وممارسة هذه الثقافة وهذه الحضارة ممارسة اختبار واختيار، فإننا لا نملك الحكم على ما ينبغي أن نأخذ منها وما ينبغي أن ندع إلا إذا سيطرنا عليها بالمعرفة والاختبار، فمن المعرفة والخبرة نستمد سلطان الاختيار»^(١).

ج- التربية العملية (التربية بالمواقف):

وهذه التربية مهمة في توعية المؤمنين وتشبيبتهم، إذ ليس أفضل من التنويه بمواقف ثبات الثابتين وأخبارهم من أمثال ثبات المجاهدين في البوسنة وفلسطين والشيخان، وأيضاً يجب التذكير بمواقف المتخاذلين ومصيرهم، فإن هذا ينفر القلب من أحوالهم فيأنف المرء منها.

(١) «المستقبل لهذا الدين»: ١١٨.

د- التربية على الدعوة إلى الله عز وجل^(١):

الدعوة إلى الله تعالى بلسانى الحال والمقال بقلب مخلص، وذهن سيّال، وعمل دائم، هي خير وسيلة للثبات على دين الله تعالى، وكف الوسواس عن المرء، إذ ستصبح الدعوة -بتلك المثابة- شغل المرء الشاغل، ودينّه المستمر، وهمّه فى الدليل والنهار، ومن هذا حاله كيف لا يثبت، ويضاف على هذا أيضاً ما تحدّثه الدعوة فى نفس الداعية من تحدى العوائق وأهل العناد والباطل، وهما من أشد وسائل الفتك بالثبات، فإن حاربهما الداعية فهو ثابت إن شاء الله تعالى.

إن الدعوة إلى الله تعالى صمّام أمان للثبات، إذ الداعى بهمة وحماس ونشاط، على بصيرة وبينة إنما يكون راسخاً رسوخاً عظيماً، ويندر أن يتراجع مثل هذا أو ينعدم ثباته.

«وإنما كان الداعية إلى الله -تعالى- ثابت لأنه يدعو إلى دين متقن، عادل، وسط، يعلم من مزاياه العظيمة ما لا يعلمه كثير غيره، ويريد أن يحمل الناس عليه، ويدلهم على سعادتهم الدنيوية والأخروية، فهو -إذا- مندفع للحديث عنه وتطبيقه فى نفسه وأهله ومجتمعه، ومن كان كذلك فإنه يكون ثابتاً راسخاً»^(٢).

والناظر فى حال الدعاة -اليوم- فى أنحاء العالم الإسلامى يجدهم أكثر الناس ثباتاً رغم تهديدات الطغاة والمجرمين، وتعذيبهم إياهم،

(١) استفدت هذه الفكرة من كتاب «وسائل الثبات على دين الله» للشيخ محمد المنجد ص ٣.

(٢) «الفتور» للشيخ جاسم المهلهل: ٣٦-٣٩ بتصرف.

والتضييق عليهم فى أرزاقهم، ومع ذلك كله لم تلن لأكثرهم قناة ولا ضعف لهم ثبات، والله الحمد والمنة.

٧- الاطلاع على سير الثابتين:

إن الاطلاع على سير الصالحين الثابتين من الأنبياء والرسل والأولياء والعلماء والمجاهدين لهو خير معين على الثبات، قال تعالى:

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

وراجع -أخى القارئ- صور الثبات فى هذا الكتاب.

والاطلاع على سير الثابتين يزرع الثقة فى النفوس والأمل فى القلوب، إذ الثابت سيكون من تلك القافلة النورانية الثابتة على العهد من لدن آدم حتى تقوم الساعة، وكم فيها من رسول مجتبى، ونبي مصطفى، وولى صالح، وداعية راسخ ثابت، وهذا الشعور بالاصطفاء والسير مع الصالحين يولد طاقة إيمانية دافعة للمرء إلى الثبات والتماسك.

٨- قراءة التاريخ والسير:

وهذا مكمل لما قبله لكنه أعلم منه وأوسع، وقراءة التاريخ عامة، والاطلاع على السير خاصة معين ثرٌ للثبات، ومجدد لما خلّق منه، ومقوّ لما ضعف فيه، وما ذلك إلا لأن قارئ التاريخ والمتعمق فى الاطلاع على رجاله وأحوالهم إنما يكتسب التجارب المهمة التى جرت للرجال المؤثرين

على مدى مئات السنين أو آلافها، فيقتدى بشباتهم ورسخوهم وتضحياتهم، ويجتنب عثراتهم وضعفهم، القوى الثابت له قدوة، والضعيف المتخاذل فيه عبرة.

قال الله تعالى مذكراً للمؤمنين بأحوال الضعاف المخاذيل:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقال جل شأنه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٤].

وقال تعالى:

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ إِذْذُن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ [التوبة: ٤٩].

وقال عز وجل مثنياً على الثابتين الراسخين:

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف: ١٣].

وقال تعالى:

﴿ وَأذْكَرُ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٥ - ٤٧].

وقال عز وجل:

﴿وإبراهيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧].

وقال تعالى:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا
لَأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١].

وقال تعالى:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ
وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

٩- الثقة بنصر الله تعالى^(١):

إذ ليس أضر على ثبات المرء من يأسه من النصر، وظنه أن الله خاذله
وتاركة، والإسلام العظيم يبتث الثقة في نفوس متبعيه، ويثبتهم ويشرهم،
ويزرع الأمل بالنصر في قلوبهم، قال تعالى:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ
يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾
[آل عمران: ١٣٩ - ١٤٠].

(١) استفدت هذه الفكرة من كتاب «الصبر في القرآن الكريم» للدكتور يوسف القرضاوى: ١١٢.

وقال تعالى :

﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) ﴾ قَالُوا أَوْذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿ [الأعراف: ١٢٨، ١٢٩].

ولقد بشر النبي ﷺ خباباً والمؤمنين معه أن الله سيفتح الجزيرة على المسلمين حتى يسير الراكب في أرجائها فلا يخشى عدواً ولا هلكة^(١).

وقد بشر رسول الله ﷺ المسلمين بأنهم سيفتحون القسطنطينية وروما، ففتح الله عليهم الأولى، ومازلنا ننتظر الفتح الآخر القريب إن شاء الله تعالى.

فعن أبي قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو فسئل أى المدينتين تفتح أولاً: القسطنطينية أو رومية؟ قال: فدعا عبد الله بصندوق له حلق فأخرج منه كتاباً، فقال عبد الله: بينا نحن عند رسول الله ﷺ نكتب إذ سئل رسول الله ﷺ أى المدينتين تفتح أولاً: القسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: «مدينة هرقل تُفتح أولاً، يعنى القسطنطينية»^(٢).

وقد تحقق ما قاله ﷺ وفتحت القسطنطينية -وهى استانبول- ومنتظر، إن شاء الله تعالى، فتح روما.

(١) سبق إيراد حديث خباب رضى الله عنه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد ورجاله ثقات، انظر «مجمع الزوائد»: ٢٢٢/٦.

الثبات

وهذه الأخبار من أعظم المثبتات على الحق المبعدات عن اليأس.

وهناك أمر مهم في هذا الباب وهو أن الثقة بنصر الله لا تعنى أن يرى المسلم نتيجة عمله وأن يعى النصر بنفسه، إذ يكفي أن يكون مهتماً للنصر فذاك شأن إلهي وتكريم رباني يفيضه الله - تعالى - على من شاء من عباده.

وبعض العاملين يؤثر فيه جداً ويُضعف من ثباته عدم رؤيته نتائج جهده وجهاده ودعوته، ويكفى أن يقال لمثل هذا: إن رسول الله ﷺ لم يشهد فتح فارس والروم ولم يعيش - بأبي هو وأمي - ليرى راية الإسلام خفاقة في العالمين، إنما رأى ذلك أصحابه وتابعوهم رضی الله عنهم.

فمن طبيعة الطريق إذاً أنه «طريق طويل وشاق، بعيد المراحل، كثير العقبات، فلا بد أن يوطن كل منا نفسه على الصبر الجميل والنفس الطويل، ويوقن أنه قد يموت دون رؤية النصر، حسب أنه سار في الطريق ومات وهو فيه»^(١).

ثم إنه مما يعظم الثقة بالنصر المحتم لهذا الدين ما يسمعه المرء اليوم من «هتافات كثيرة من هنا ومن هناك تنبعث من القلوب الحائرة، وترتفع من الحناجر المتعبة تهتف بمنقذ، وتتلقت على مُخلص، وتتصور لهذا المخلص سمات وملامح معينة تطلبها فيه، وهذه السمات والملامح لا تنطبق على أحد إلا على هذا الدين.

فمن طبيعة المنهج الذي يرسمه هذا الدين، ومن حاجة البشرية إلى هذا المنهج نستمد نحن يقيننا الذي لا يتزعزع في أن المستقبل لهذا الدين، وأن

(١) «من ركائز الدعوة»: د. مجدى الهلالي: ٢١٥.

له دوراً في هذه الأرض هو مدعوٌ لأدائه، أراد أعداؤه كلهم أم لم يريدوا، وأن دوره هذا المرتقب لا تملك عقيدة أخرى - كما لا يملك منهج آخر - أن يؤديه، وأن البشرية بجمالها لا تملك كذلك أن تستغني طويلاً عنه.

إن البشرية قد تمضى في اعتساف تجارب متنوعة هنا وهناك - كما هي الآن ماضية في الشرق وفي الغرب سواء - ولكننا نحن مطمئنون إلى نهاية هذه التجارب، واثقون من الأمر في نهاية المطاف^(١).

١٠- التزام شريعة الإسلام وأدابه ضمان الثبات:

التزام شريعة الإسلام العظيمة وأدابه الكريمة الطريق الأوفق للمحافظة على الثبات، وهناك مجموعة من القواعد الباهرة الدالة على عظمة الإسلام وحياطته أهله وحمائته إياهم من آفة التذبذب أو آفة التشدد الموصلتين إلى الانقطاع والترك، وكل ذلك حيداً عن الثبات وتراجع عنه، فمن تلك القواعد:

أولاً: الحث على استدامة العمل الصالح ولو كان قليلاً:

عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت واصفةً نوعَ العملِ الصالح الذي يحبه النبي ﷺ:

«وكان أحبَّ الدين إليه ما داوم عليه صاحبه»^(٢).

(١) «المستقبل لهذا الدين»: ٧-٨.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان: باب أحب الدين إلى الله -تعالى- أدومه: ١٧/١.

الثبات

وعن عائشة -رضى الله عنها- أن النبي ﷺ قال:

«إن أحب الأعمال إلى الله ما دووم عليه وإن قل»^(١).

وقال الإمام النووي -رحمه الله تعالى- معلقاً على هذا الحديث:

«وفيه الحث على المداومة على العمل، وأن قليله الدائم خير من كثير ينقطع، وإنما كان القليل الدائم خيراً من الكثير لأن بدوام القليل تدوم الطاعة والذكر والمراقبة والنية والإخلاص والإقبال على الخالق -سبحانه وتعالى- ويثمر القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافاً كثيرة»^(٢).

ثانياً: الحث على الاستزادة من أعمال الخير والبر:

إن الإسلام يحرض المرء على أن يكون يومه خيراً من أمسه، وغده أفضل من حاضره، ولهذا التحريض أثر في نفس المسلم؛ حيث إنه يسوقه إلى الخيرات ويبعده عن الشرور والمفاسد، وإن حاول المسلم واجتهد ليحقق الاستزادة المرجوة من الخير ولم يُفلح فإنه سيضمن -على الأقل- ثباتاً على حاله الحسن الذي يعيشه.

قال ابن مسعود رضى الله عنه:

(١) أخرجه الإمام مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها: باب فضيلة العمل الدائم:

٤٠٢/٦.

(٢) «شرح صحيح مسلم للنووي»: ٤٠٢/٦ - ٤٠٣.

«ما ندمت على شىء ندمى على يوم غربت شمسهُ نقص أجلى فيه ولم يزد فيه عملي»^(١).

وقال سفيان بن عيينة: قال معن: ما رأيت مسعراً - وهو ابن كدام العملالى، شيخ العراق - فى يوم إلا وهو أفضل من اليوم الذى كان بالأمس^(٢).

ثالثاً: الاحتراس حال الفتور:

قال صلى الله عليه وسلم:

«لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة»^(٣)، فمن كانت فترته إلى سنتى فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك»^(٤).

فينبغى على المسلم إن فتر عن العمل الصالح والتطوعات ألا يفرط أبداً فى الفرائض، إذ هى بمثابة الروح للبدن، فإن ترك المسلم الفرائض كلها أو بعضها فقد هدم ثباته بيده، ويوشك أن يهدم دينه كله.

إذاً هناك حد أدنى من التعبد والالتزام بشرائع الإسلام لا يجوز للمسلم أن يفرط فيه ولا أن يتكاسل ويفتر عن أدائه مهما كان الأمر.

(١) «الوقت فى حياة المسلم»: ١٣.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ٥٧٧/١.

(٣) الشرة: النشاط، وشرة الشباب أوله ونشاطه، انظر «الترغيب والترهيب»: ٨٧/١.

(٤) قال الإمام المنذرى: رواه ابن أبى عاصم وابن حبان فى صحيحه، انظر المصدر السابق، وقد صحح الحديث الأستاذ أحمد شاكر: انظر «العوائق»: ٩.

وهناك أمر مهم يجب أن يراعى حال الفتور وهو ألا يحاول الفاتر أن يلصق سبب فتوره بأحد من الخلق، أو يكله إلى أسباب غير منظورة، أو أن يؤدي به الفتور إلى ضياع الوفاء، وكفران العشير، والتنكر للجميل، والامتلاء بالغل والحقد على المسلمين، أو أن يؤدي به الفتور إلى الانقطاع التام عن العمل والدعوة فإن ذلك داء عَضال ومرض مُتلف، والله المستعان.

رابعاً: الترويح والاستجمام وعدم التشديد على النفس:

وهذه مسألة مهمة، إذ العبادة المتصلة قد تورث صاحبها الملل أو الانقطاع، ونبينا -ﷺ- قد رَوَّحَ عن نفسه أحسن الترويح، فكان يتزوج النساء، ويحب الحلواء والطيب، ويلعب أهله، ويمازح أصحابه، وينكر على من أبدى تشدداً، ولعل قصة النفر الثلاثة الذين تقالوا عبادة النبي -ﷺ- معبرة عن هذا الترويح المطلوب، فعن أنس رضى الله عنه قال:

«جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي -ﷺ- يسألون عن عبادة النبي -ﷺ-، فلما أخبروا كأنهم تقالوها^(١)، فقالوا: وأين نحن من النبي -ﷺ- قد عُفِّرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم: أما أنا فإني أصلى الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله -ﷺ- فقال: «أنتم الذين قلمت كذا

(١) أى رأى كل منهم أنها قليلة، انظر «فتح البارى»: ١٢٦/١٩.

وكذا؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأنقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(١).

وقال ابن حجر رحمه الله تعالى:

«المشدد لا يأمن من الملل بخلاف المقتصد فإنه أمكن لاستمراره، وخير العمل ما دام عليه صاحبه»^(٢).

وقال أيضاً:

«الأخذ بالتشديد فى العبادة يفضى إلى الملل القاطع لأصلها»^(٣).

وعن عائشة -رضى الله عنها- أن النبى ﷺ دخل عليها وعندها امرأة فقال: «من هذه؟» قالت: فلانة تذكر من صلاتها، قال: «مه»^(٤)، عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله^(٥) حتى تملوا»^(٦).

وقصة عبدالله بن عمرو بن العاص مع النبى ﷺ صالحة لهذا السياق، فقد قال رضى الله عنه:

(١) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه فى كتاب النكاح: باب الترغيب فى النكاح: ٢/٧.

(٢) «فتح البارى»: ١٢٦/١٩.

(٣) المصدر السابق: ١٢٧/١٩.

(٤) اسم فعل أمر بمعنى اكفف.

(٥) قال الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى «قال جماعة من المحققين: إنما أطلق هذا على

جهة المقابلة اللفظية مجازاً كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]

انظر «فتح البارى»: ١/١٧٥-١٧٦، وإنما قالوا ذلك لاستحالة الملل على الله تعالى.

(٦) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه فى كتاب الإيمان: باب أحب الدين إلى الله تعالى

أدومه: ١٧/١.

«أنكحني أبي امرأة ذات حسب، فكان يتعاهد كنته^(١) فيسألها عن بعليها، فتقول: نعم الرجل من رجل، لم يظأ لنا فراشاً، ولم يُفْتش لنا كنفاً مذ أتيناها، فلما طال ذلك عليه ذكر للنبي ﷺ فقال: القنى به، فلقيته بعد، فقال: كيف تصوم؟ قال: كل يوم، قال: وكيف تختم؟ قال: كل ليلة، قال: صم في كل شهر ثلاثة، واقرأ القرآن في كل شهر. قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: أفطر يومين وصم يوماً. قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: صم أفضل الصوم: صوم داود، صيام يوم وإفطار يوم، وقرأ في كل سبع ليال مرة. فليتنى قبلت رخصة رسول الله ﷺ، وذلك أنى كبرت وضعت، فكان يقرأ على بعض أهله السبع من القرآن بالنهار، والذي يقرؤه يعرضه من النهار ليكون أخفَّ عليه بالليل، وإذا أراد أن يتقوى أفطر أياماً وأحصى وصام مثلهن كراهية أن يترك شيئاً فارق النبي ﷺ عليه»^(٢).

تلك كانت ثلاثة من آداب الإسلام يُرجى مع المحافظة عليها الثبات على الصراط إن شاء الله تعالى.

١١- الخوف من الانتكاسة وسوء الخاتمة:

وهذا سبب دافع للثبات؛ إذ رؤية المتكسين، وسماع أخبار أصحاب الخاتمة السيئة يدفع المهتمين الثابتين للعلو على شأن أولئك، والترفع عن

(١) أى زوج ابنه.

(٢) أخرج الحديث الإمام البخارى فى صحيحه: كتاب فضائل القرآن باب فى كم يُقرأ القرآن: ٢٤٢/٦.

عوامل بقاء الثبات

الدركات التي صاروا إليها، والمنازل التي ككبوا فيها، وفي الوقت نفسه يغرس الخوف من المصير الذى صاروا إليه.

ولعل من حكم ذكر المنتكسين فى كتاب الله - تعالى - هو تنبيه المهتدين وتخويفهم حتى لا يسلكوا مسلك أولئك الأشقياء، فيختم لهم بما ختم لهم.

و«اعلم أن سوء الخاتمة - أعاذنا الله منها - لا تكون لمن استقام ظاهره وصلاح باطنه، ما سُمع بهذا ولا علم به - والحمد لله - وإنما تكون لمن كان له فساد فى العقل، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، وربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة فيصطلمه^(١) الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ بالله ثم العياذ بالله، أو يكون ممن كان مستقيماً ثم يتغير عن حاله، ويخرج عن سننه^(٢)، ويأخذ فى طريقه، فيكون ذلك سبباً لسوء خاتمته وشؤم عاقبته»^(٣).

تلك كانت جملة من العوامل المبقية للثبات بحول الله وقوته، وإليك أخى القارئ جملة من العوامل الهادمة للثبات المذهبة له:

(١) الاصطلام: الاستئصال، انظر «لسان العرب»: صلم.

(٢) السنن: الطريقة.

(٣) «التذكرة فى أحوال الموتى والدار الآخرة»: ٦٤-٦٥.

عوامل هدم الثبات

هناك عدد من العوامل الهادمة للثبات، التي إذا اجتمع بعضها أو أكثرها على العبد أهلكته، فمن هذه العوامل:

أولاً: الأمراض القلبية:

وهي أعظم أسباب الفتك بالثبات، فمن تلك الأمراض:

١- التخوف:

وينقسم هذا التخوف إلى تخوف على النفس وعلى الأهل والأولاد، وعلى المنصب والجاه، وعلى المال:

أ- التخوف على النفس:

وهذا التخوف من أكبر معوقات الثبات، إذ يظن المتخوف أنه إن ثبت على الدين فإنه سيخاطر بنفسه مخاطرة عظيمة، وهذا من وساوس الشيطان -ولا شك-، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ٢٧].

حب السلامة يثنى هم صاحبه عن المعالى ويغرى المرء بالكسل
فإن جَنَحَتْ إليه فاتخذ نفقًا فى الأرض أو سلمًا فى الجوف فاعتزل
ب- التخوف على الأهل والأولاد:

وهذا الخاطر الشيطانى يجول بقوة فى أذهان كثير من الناس اليوم،
وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن: ١٥].

ونقل الإمام ابن القيم فى معنى «فتنة»:

«قال مقاتل: أى بلاء وشغل عن الآخرة، قال ابن عباس: فلا
تطيعوهم فى معصية الله، وقال الزجاج: أعلمهم الله - عز وجل - أن
الأموال والأولاد مما يفتنون به، وهذا عام فى جميع الأولاد، بسببه،
وتناول الحرام لأجله، ووقع فى العظائم إلا من عصمه الله»^(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الولد مبخلة مجهولة مجبنة»^(٢).

وهذا الحديث منطبق على كل من عنده ولد إلا من هذب الإيمان قلبه،
وملك عليه جوارحه، فإنه ليس للأولاد عليه سلطان إلا سلطان الشرع،
وثبات مثل هذا ثبات الجبال الرواسى، ألا ترى حال سيدنا إبراهيم - عليه
الصلاة والسلام - كيف عزم على ذبح ابنه البكر إسماعيل لما علم أن ذلك

(١) «معالم الدعوة فى قصص القرآن الكريم»: ٨٦، نقلاً عن «إغاثة اللهفان».

(٢) قال الإمام الهيثمى: «رواه البزار ورجاله ثقات»، انظر «مجمع الزوائد»: ١٥٨ / ٨.

وهناك رواية أخرى: «الولد ثمرة القلب، وإنه مجبنة مبخلة محزنة» وهى رواية حسنة
بشواهدا، وانظر المصدر السابق.

مراد الله، ثم لما أظهر الله -تعالى- صدقه صرفه عن ذلك وفداه بذبح عظيم.

ولا ينبغي للعبد الصالح أن يكثر من التخوف على الأهل والأولاد، فقد قال الإمام محمد بن المنكدر:

«إن الله يحفظ العبد المؤمن في ولده وولد ولده، ويحفظه في دُويرته ودُويرات حوله، فما يزالون في حفظ أو في عافية ما كان بين ظهرانيهم»^(١).

وقد دخل أبو سعيد الواسطي على الإمام أحمد في سجنه فقال له:

«يا أبا عبد الله: عليك عيال، ولك صبيان وأنت معذور -كأني أسهل عليه الإجابة^(٢)- فقال لى أحمد بن حنبل:

«إن كان هذا عقلك يا أبا سعيد فقد استرحت»^(٣).

«وما أكثر ما يقال مثل هذا للدعاة اليوم، وما أكثر من يفهم الإسلام ثم يحدث نفسه بمثل هذا فيجبن ويتزوى ولا يشارك الدعاة سيرهم، وإنما هو حديث من استراح -كما يقول الإمام أحمد- وأما من لدع واقع الإسلام قلبه فأنى له الراحة؟ وأنى يدع لصيانه وزوجه مجال تخذيله وتقيدته عن الاندفاع مع الدعاة؟...»^(٤).

(١) «نزهة الفضلاء»: ١ / ٤٩٥ - ٤٩٦.

(٢) أى إلى القول بخلق القرآن خوفاً عليه من بطش السلطان.

(٣) «طبقات الحنابلة» لأبى يعلى، نقلاً عن «المنطلق»: ٢٣٢.

(٤) «المنطلق»: ٢٣٢.

ج- التخوف على المنصب والجاه:

قد ينشأ ناشئ من المسلمين على الطهر والعفاف، وتراه ممتلئاً حماساً وقوة لنشر دين الله -تعالى- فى الأرض والتمكين له، حتى إذا تقلب به الزمان -والدهر قُلب حوّل- وتسلم المناصب والمراكز هان عليه أمر الدعوة، ونسى ما كان يدعو إليه من قبل أو تناسى، وقنع بالمنصب الدنيوى، وصارت حياته أكلاً وشرباً ونوماً ومسارة فى اللذائذ، وتوسعاً فى المباحات، وفقد المسلمون داعية متحمساً كان الأمل معقوداً عليه للتغيير والإصلاح.

د- التخوف على المال:

وهذا من مكائد الشيطان القديمة، وقد حذر الله تعالى من ذلك فقال:

﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن: ١٥].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِن آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿ [التوبة: ٧٥-٧٧].

وقال ﷺ: «تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطى رضى، وإن لم يعط سخط، تعس وانكس وإذا شيك فلا انتقش»^(١).

(١) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه بسنده إلى أبى هريرة -رضى الله عنه- فى كتاب الجهاد: باب الحراسة فى الغزو فى سبيل الله: ٤١/٤ - ٤٢.

والخميصة: كساء أسود مربع، والمراد مطلق الملابس، وانظر «لسان العرب» خ م ص.

وقال ﷺ: «... فوالله لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»^(١).

ويذكر الأستاذ فتحى يكن مثالا على هذا الباب فيقول:

«أعرف أحًا كان قبل زواجه مقدامًا معطاءً، ولقد نكح بزوجة سيئة وضعت الموت والفقر بين عينيه، فكانت كلما رزق بغلام ذكرته بحقه المادى عليه، وأن عليه مضاعفة السعى من أجله، ولما تكاثرت ذريته - وامراته على هذه الشاكلة- سقط فى الامتحان، وأصبح عبداً للدينار بعد أن أصبح عبداً للزوجة، وهو حتى الآن لم يحسّ بالجريمة التى ارتكب، وبالهاوية التى فيها سقط، ولقد نسى ما كان يذكر به إخوانه والناس»^(٢).

هـ- التخوف من الاستهزاء والسخرية والاتهام الباطل:

وهذا أمر يخشاه أكثر الناس، ولا يصبرون له ولا يشبتون، حيث الاستهزاء بهياتهم، أو بسلوكلهم، أو بأفكارهم، يفعل فعله فى النفوس، وكذلك الاتهام الباطل لهم، والطعن فى إخلاصهم معول هدم عظيم فى ثبات هؤلاء، وكان هؤلاء الناس لم يتمعنوا فى سيرة المصطفى ﷺ حيث كان يُستهزأ به ويُسخر، ويُتهم تارة بأنه مجنون، وأخرى بأنه شاعر، ثالثة بأنه كاهن، ورابعة بأنه ساحر، وكان يتهم بأنه مؤلف للقرآن، كاذب على

(١) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه بسنده إلى عمرو بن عوف الأنصارى -رضى الله عنه- فى باب الجزية والمواعدة مع أهل الحرب: ٤ / ١١٧ - ١١٨.

(٢) «التساقطون على طريق الدعوة»: ٨٤.

الرحمن، لكن كل ذلك لم يفت في عضده، ولم يكن له قناة، بأبي هو وأمي، ﷺ.

والاستهزاء بالأنبياء والمصلحين سمة عامة في كل أمة دعوة، والثبات حال الموفقين الصالحين في كل زمان ومكان.

٢- العُجب:

وهو السرور والفرح بالنفس سروراً يتجاوز الحد والمقدار، وتصور المرء نفسه على غير ما هو عليه حقاً، وهذا مرض فتاك يؤدي إلى أمراض مهلكة مثل الكبر واحتقار الناس.

وعرف الإمام ابن المبارك العُجب، وحذر منه، فقال: «أن ترى عندك شيئاً ليس عند غيرك، لا أعلم في المصلين شيئاً شراً من العُجب»^(١).

وهذا أصل مرض إبليس حيث قال الله تعالى قاصاً اعتراضه على السجود لآدم عليه الصلاة والسلام: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [ص: ٧٦] فأعجبت المسكين نفسه حيث ظن أن النار خير من الطين، فأورثه ذلك العُجب خسران الأبد، والعياذ بالله.

وهذا قارون أعجب بنفسه وماله فقال: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [القصص: ٧٨] فأهلكه الله تعالى حيث خسف به الأرض.

وقد يُعجب العامل للإسلام بعمله وعلمه فيؤدي به ذلك إلى ذهاب ثباته وهلاكه والعياذ بالله تعالى.

(١) «نزهة الفضلاء»: ٢ / ٦٥٧.

ويشفى من هذا الداء معرفة الإنسان بأصل خلقته، وأن الله هو المنعم المتفضل عليه، ولا حول للمرء ولا قوة فيما رُزق أو وُهب من نعم، وإذا قال المرء هذا الدعاء النبوي مخلصاً من قلبه فقد برئ من العجب، قال ﷺ:

«من قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمة فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر، فقد أدى شكر يومه، ومن قال مثل ذلك حين يمسي فقد أدى شكر ليلته»^(١).

٣- اليأس:

وهو مرض قلبي فتاك، وإن تعدى حده الأعلى، واستولى على القلب بالكلية خرج بالعبد إلى دائرة الكفر -والعياذ بالله تعالى- قال الله سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وهو إن تردد في صدر الداعية أفقده حماسه، ورزأه ثباته.

«من المؤثرات النفسية التي يواجهها الدعاة، ويستشعرون بها، ويجدون الكثير ممن يُحسبون على الإسلام يتشدقون بها، ويرفعون لواءها «المؤثر التيسى الانعزالي» الذي يقعدهم عن مسئولية الدعوة، ويشبّطهم عن فرضية الجهاد، ويدفعهم إلى عزلة المجتمع والركون إلى الاسترخاء

(١) أخرج الحديث الإمام أبو داود -رحمه الله تعالى- في سننه: كتاب الأدب: باب ما يقول إذا أصبح: ٤ / ٣١٨ : ٥٠٧٣.

والانطوائية... وهذه الظاهرة من التيسير والتثبيط إذا استفحلت في أمة، وترسخت في نفسية الدعاة فإنها في الحقيقة القاصمة التي تقصم مسيرة العمل الإسلامي، والحالقة التي تحلق التفاؤل بالنصر، فلم يبق لإقامة العزة الإسلامية في النفوس رجاء، ولم يعد لاستعادة الأمجاد التاريخية أمل»^(١).

وانظر إلى رئيس وزراء تركيا البروفيسور نجم الدين أربكان حيث عاصر أشد صور العلمانية عداءً للإسلام مدة طويلة جداً، لكنه استطاع بفضل الله - تعالى - ثم بجهده ومثابرته في الدعوة أن يصل بأصحابه إلى تولى المسؤولية سلماً ولأول مرة في البلاد الإسلامية في تاريخها الحديث، وإنه لحدث ضخم ما كان ليكون لو أن أربكان ومن معه أخذوا إلى الراحة واستسلموا لليأس.

قال الإمام ابن القيم:

«كثير من الناس يظن أن أهل الدين الحق في الدنيا يكونون أذلاء مقهورين، مغلوبين دائماً، بخلاف من فارقههم إلى سبيل أخرى وطاعة أخرى، فلا يثق بوعد الله بنصر دينه وعباده، بل إما أن يجعل ذلك خاصاً بطائفة دون طائفة، أو بزمان دون زمان، أو عدم الوثوق بوعد الله تعالى، ومن سوء الفهم في كتابه»^(٢).

(١) «عقبات في طريق الدعوة»: للأستاذ عبد الله علوان: ٢٢٢.

(٢) «إغاثة اللهفان»: ١٨٣ / ٢.

لابد للمؤمن من استشعار الاستعلاء الإيماني، وأنه خير من الكافرين والفاسقين في الحال والمآل - إن شاء الله - فقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، لكن هناك استعلاء كاذب يحمل المرء على الكبر وتجاوز الحد فهذا هو المحذور، وإليك أخى القارئ قصة جبلة بن الأيهم الغساني آخر ملوك الغساسنة فهي دالة على خطر الاستعلاء والغرور، وأنه قد يؤدي إلى إذهاب الثبات بالكلية، ومفارقة دين الإسلام - والعياذ بالله تعالى - فقد كتب جبلة إلى عمر رضى الله عنه يعلمه بإسلامه ويستأذنه في الوفود عليه، فسر بذلك هو والمسلمون، فكتب إليه عمر: أن اقدم فلك ما لنا وعليك ما علينا، فقدم في خمسمائة فارس من عدد جفنة، فلما دنا من المدينة ألبسهم الوشى المنسوج بالذهب والحريير الأصفر وجلل الخيل بجلال الدباج وطوقها بالذهب والفضة، ولبس جبلة تاجه وفيه قرطاً مارية، فلم يبق بالمدينة أحد إلا خرج للقاءه، وفرح المسلمون بقدمه وإسلامه، ثم حضر الموسم من عامه ذلك، فبينا هو يطوف بالبيت إذ وطئ على إزاره رجل من فزارة فحله، فالتفت إليه جبلة مغضباً ولطمه فهشم أنفه، فاستعدى عليه إلى عمر رضى الله عنه فبعث إليه يقول: ما دعاك إلى أن لطمت أخاك فهشمت أنفه؟

قال: إنه وطئ إزارى فحله فلولا حرمة البيت لأخذت الذى فيه عيناه.

فقال له عمر: أما أنت فقد أقررت فيما أن تُرضيه وإلا أقدته منك.

قال: أتُقَيِّده منى وأنا ملك وهو سوقة؟

قال عمر: يا جبلة إنه قد جمعك وإياه الإسلام فما تفضله إلا بالعافية.

قال: والله لقد رجوت أن أكون فى الإسلام أعز منى فى الجاهلية.

قال عمر: هو ذاك.

قال: إذاً أنتصر.

قال: إن تنصرت ضربت عنقك.

فقال جبلة: أخرجنى إلى غد يا أمير المؤمنين.

قال: ذلك لك.

فلما كان الليل خرج هو وأصحابه فلم يلبث أن دخل قسطنطينية على هرقل فتصبر، فأعظم قدومه وسُربه، وأقطعته الأموال والأرضين والرباع^(١).

٥- التطلع إلى المنصب والثراء:

وهو داء فتاك أذهب بثبات عدد من العاملين، وهو المدخل الشيطاني الذي ولج منه المغرضون وأصحاب الأهداف الدنيئة إلى نفوس بعض

(١) وقصته طويلة، انظر «الوافى بالوفيات»: ١١ / ٥٣ وما بعدها، وانظر «سير أعلام النبلاء»: ٣ / ٥٣٢، وقد علق الذهبي على قصته بقوله: «ثم ندم على رده، نعوذ بالله من العتو والكبر»، وللقصّة سياق غير هذا، انظر «البداية والنهاية» حوادث سنة ٥٣هـ.

الذين لم تكتمل تربيتهم، ولم يتم إعدادهم لتحمل هذا البلاء العظيم، وهناك أمثلة عديدة للذين ضلوا بهذه الفتنة قديماً وحديثاً، فمن الأمثلة التاريخية على هذا البلاء ذلك الرجل الذي قصَّ الله -تعالى- علينا قصته بقوله سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لئنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿[التوبة: ٧٥-٧٧].

وهناك عدد من المحدثين لُوِّحَ لهم بالمنصب والجاه فما استطاعوا الثبات والنجاة من هذه المحنة، ولا الفكاك من هذه الفتنة، فمنهم:

١- عالم خُددَ به الناس زماناً طويلاً في الستينيات والسبعينيات من القرن الهجري الفات، ثم أظهرته المحنة، وفُتِن فتوتاً عظيماً، وباع دينه بعرض من الدنيا قليل، حتى أنه عُين في منصب مهم، فاستغله لأغراضه الدنيئة، ومطامعه التي لا حصر لها، وصار يهاجم إخوانه الذين أخذوا بيده في بداياته، وكانوا معه حتى عُرِف واشتهر، وقد كان مدير مكتبه يقسم بالله إنه لو أمر ذلك العالم بالسجود للطاغوت لفعل، وهذا الأمر من مدير مكتبه دالٌّ على الهوة السحيقة التي تردى فيها ذلك المسكين، وكل ذلك بسبب تطلعه إلى المنصب وتعلقه به.

٢- ويصف الأستاذ فتحى يكن حال أحد الناس المبتلين بهذا الداء فيقول:

«أذكر أن لقاءً جمعني بأحد الأعضاء البارزين في حركة إسلامية، وكان متهمًا بحب الأضواء والبروز الشخصي، ومن خلال المناقشة اكتشفت شرحًا مخيفًا في تربيته، وبصمة سيئة في تكوينه حين ابتدرني قائلاً:

- أنا لا أنكر أن عندي تطلعات شخصية، وهل يمنع الإسلام من ذلك؟

- ثم أردف قائلاً: كل فرد في الدعوة عنده تطلعات، أو ليست عندك تطلعات؟

قلت له مستغرباً: أنا لا أفهم الإسلام هكذا، وإنما أفهمه استخلاصاً لنا من كل تطلعاتنا، وإنكاراً لذواتنا أمام أهداف الإسلام العلية، ثم أكملت قائلاً:

- إن كان لى من تطلع فإن أرى راية الإسلام منتصرة خفاقة .

قال: وما المانع من أن تحقق الأمرين معاً: تطلعاتنا وتطلعات الإسلام.

قلت: إن ذلك يذكرني بالأعرابي الذي جاء محمداً ﷺ يعرض عليه أمره ويقول: إني أنزل المنزل أريد وجه الله وأن يرى موقعي، فنزل فيه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] (١).

(١) انظر «المساقطون على طريق الدعوة»: ٥٤، ٥٥.

٣- يقول الأستاذ فتحي يكن -أيضاً- واصفاً حال مجموعة من هؤلاء

المبتلين:

«كانوا- في مقتبل العمر وقبل أن يلجوا إلى المجتمع من بابه الكبير- مثال الالتزام والطاعة، حتى إذا أحسوا في أنفسهم أنهم أصبحوا شيئاً، أو أصبحت لهم منزلة اجتماعية مرموقة -وقد يكونون بلغوها على حساب الدعوة- إذا بهم يتغيرون... فهذا شاب كان منصب القضاء عامل فتنة في حياته، ومِعول هدم في سلوكه، وسبباً في سقوطه... وآخر كان المال فتنته، ثم زواجه بابنة أحد الوجهاء مصرعه»^(١).

٦- التطلع إلى الشهوات:

وهذا بلاء عظيم، إذ يمكن أن ينتكس بسبب ذلك بعض من تظهر عليهم علائم الصلاح، والشهوات معول من معاول إبليس، وهذه قصة رجل مجاهد انتكس بسبب شهوة، فقد ذكر الإمام ابن كثير -رحمه الله- في تاريخه نقلاً عن الإمام ابن الجوزي رحمه الله أن رجلاً يدعى عبده بن عبدالرحيم:

«كان من المجاهدين كثيراً في بلاد الروم، فلما كان في بعض الغزوات والمسلمون محاصروا بلد من بلاد الروم إذ نظر إلى امرأة من نساء الروم في ذلك الحصن فهويها، فراسلها: ما السبيل إلى الوصول إليك؟ فقالت: أن تنتصر وتصعد إليّ، فأجابها إلى ذلك، فما راع المسلمين إلا وهو

(١) «التساقطون على طريق الدعوة»: ١٢٤-١٢٥.

عندها، فاغتم المسلمون بسبب ذلك غمًا شديدًا، وشق عليهم مشقة عظيمة.

فلما كان بعد مدة مروا عليه وهو مع تلك المرأة في ذلك الحصن، فقالوا: يا فلان! ما فعل قرآنك؟ ما فعل علمك؟ ما فعل صيامك؟ ما فعل جهادك؟ ما فعلت صلاتك؟

فقال: اعلّموا أنى أنسيت القرآن كله إلا قوله: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٢) ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمْلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿[الحجر: ٢، ٣] وقد صار لى فيهم مال وولد»^(١).

فهذا الشقى قد انتكس بسبب شهوة أدت إليها نظرة محرمة.

ويقرب من هذا ما صنعه عابد بنى إسرائيل إذ «تعبد ستين سنة، وإن الشيطان أراده فأعياه، فعمد إلى امرأة فأجنتها ولها إخوة، فقال لإخوتها: عليكم بهذا القسّ فيداويها، قال: فجاؤوا بها إليه فداواها وكانت عنده، فبينما هو يوماً عندها إذ أعجبه فاتأها فحملت، فعمد إليها فقتلها، فجاء إخوتها، فقال الشيطان للراهب: أنا صاحبك، إنك أعيتنى، أنا صنعت هذا بك فأطعنى أنجك مما صنعت بك، اسجد لى سجدة، فسجد له، فلما سجد له قال: إنى برىء منك، إنى أخاف الله رب العالمين»^(٢).

(١) «البداية والنهاية»: ٦٤/١١.

(٢) ذكر الإمام ابن كثير الرواية عن ابن جرير بإسناده عن على رضى الله عنه، وهنالك سياق أطول من هذا، وانظر «تفسير القرآن العظيم»: ١٠٢-١٠١/٨.

٧- الغيرة والحسد:

وهما من أعظم أمراض القلوب تأثيراً في الإنسان بعامة، وفي ثباته خاصة، وذلك لأن صاحب الحسد والغيرة لا يطيق أن يرى من هو أفضل منه، وقد يكيده وينصب له الحبائل، فيخسر دنياه وأخراه -والعياذ بالله تعالى- وهذا قبائل قتل أخاه هابيل غيرةً وحسداً، فأورده ذلك موارد الخسران العظيم.

ومردّ الغيرة والحسد إلى سوء التربية وضعفها، وعدم قناعة الإنسان بما أوتيته من الذكاء والهمة والعلم والعمل، خاصة عندما يرى من يفوقه في كل ذلك أو بعضه، فبعض أسباب العداء الشديد ليس لها سبب ظاهر ولا تفسير لها إلا الغيرة والحسد.

وإن لم يعالج الإنسان نفسه ويهذبها فإنه يعيش مغموماً محزوناً، ليس له قدم ثابت راسخ في العلم والعمل، وذلك لأن حسده وغيرته يذهبان بتعقله وثباته، إن لم يذهبا بإيمانه، والعياذ بالله.

وطريق العلاج الأول هو القناعة بالرزق الإلهي والقسمة الربانية، والتسليم لله تعالى في كل قضائه وقدره؛ فمن صنع ذلك يُرجى له العافية والسلامة إن شاء الله تعالى.

قال الله تعالى مُعْظَمًا النكيرَ على أهل الحسد والغيرة:

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٥٤].

٨- الغلو:

وهو مرض فتاك، أفسد عدداً من المسلمين قديماً فصاروا خوارج، وهو اليوم يهدد عدداً كبيراً من شباب الصحوة المباركة.

وقد قال النبي ﷺ: «هلك المنتطعون»^(١).

وقال ﷺ:

«إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا...»^(٢).

وقال ابن المنير -رحمه الله تعالى- تعليقاً على هذا الحديث:

«فى هذا الحديث علم من أعلام النبوة، فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنتع فى الدين ينقطع، وليس المراد منع طلب الأكملى فى العبادة فإنه من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدى إلى الملأل أو المبالغة فى التتووع المفضى إلى ترك الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته كمن بات يصلى الليل كله ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه فى آخر الليل فنام عن صلاة الصبح فى الجماعة أو إلى أن خرج الوقت المختار أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة»^(٣).

يقول الأستاذ فتحى يكن:

«أذكر أن أحد الإخوة أقسم ليحفظن القرآن عن ظهر قلب خلال فصل صيف، ولقد اجتهد فى ذلك ولكنه لم يتمكن، فسخط على

(١) أخرج الحديث الإمام مسلم فى صحيحه: كتاب العلم: ٢٠٥٥/٤: ٢٦٧٠.

(٢) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه: كتاب الإيمان: باب الدين يسر: ١٦/١.

(٣) «فتح البارى»: ١٦٥/١.

نفسه سخطاً شديداً، وصمم لينتقم منها أبشع انتقام، فما كان منه إلا أن حرم نفسه من كل ما أحل الله له: بدأ بصيام متتابع لا يفطر إلا لماماً، وقيام متتابع لا ينام إلا سهواً، ثم انقطع عن دراسته وباع كتبه وأثاث غرفته، ولقد انتهى به الأمر بعد ذلك إلى مستشفى الأمراض العصبية، وإلى غيبة عن الدعوة بالكلية، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»^(١).

نعم تلك صورة حادة لترك الثبات لكنها واقعية حاصلتها في دنيا الناس بدرجات متفاوتة من الحدة والغلو.

وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه:

«والذى لا إله إلا هو ما رأيت أحداً كان أشد على المتنطعين من رسول الله ﷺ»^(٢).

والغلو والتنطع يفضى بصاحبه إلى الانقطاع وعدم الثبات، وذلك لأن الإنسان من طبعه الملل، وهو ذو طاقة محدودة، فإن صبر أياماً وشهوراً على التشدد والعُسْر فإنه لن يصبر أكثر من ذلك، وقد ينتقل من الإفراط إلى التفريط، ومن التشدد إلى التسبب فيدع العمل كله قليله وكثيره^(٣).

(١) «المساقطون على طريق الدعوة»: ٨٦-٨٧.

(٢) أخرجه الإمام الدارمي في مقدمة سننه: ٥٧/١ كما في «آفات على الطريق»: ٣/١٩٥.

(٣) «آفات على الطريق»: ٣/٢٠٧-٢٠٨ بتصرف.

وقد قال ﷺ: «لا تشددوا على أنفسكم، فإنما هلك من كان قبلكم بتشديدهم على أنفسهم وستجدون بقاياهم في الصوامع والديارات»^(١).
وقال الحسن البصرى، رحمه الله تعالى:

«السنة -والذى لا إله إلا هو- بين الغالى والجافى، فاصبروا عليها - رحمكم الله- فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقى، الذين لم يذهبوا مع أهل الأتراف فى أترافهم، ولا مع أهل البدع فى بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم، فكذلك إن شاء الله تكونوا»^(٢).

وقد بين الإمام الشاطبى الأصولى خطر الغلو، وأثره فى إذهاب الثبات، وضعف التوازن المطلوب فى إتيان التكليف، فقال:

«اعلم أن الحرج مرفوع عن المكلف لوجهين: أحدهما الخوف من الانقطاع من الطريق وبغض العبادة وكرهة التكليف، ويتنظم تحت هذا المعنى الخوف من إدخال الفساد عليه فى جسمه أو عقله، أو ماله، أو حاله.

والثانى: خوف التقصير عند مزاحمة الوظائف المتعلقة بالعبد المختلفة الأنواع؛ مثل قيامه على أهله وولده إلى تكاليف أخر تأتى فى الطريق،

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب: باب فى الحسد، ورجاله ثقات إلا أن عبد الله بن صالح المصرى كاتب الليث -أحد رواته- سئ الحفظ، انظر «سير أعلام النبلاء»:

٣٢٧/٢: هامش (١).

(٢) «إغائة اللفهان»: ٧٠/١.

فربما كان التوغل فى بعض الأعمال شاغلاً عنها، وقاطعاً بالمكلف دونها، وربما أراد الحمل للطرفين على المبالغة فى الاستقصاء فانقطع عنهما.

إن المكلف مطلوب بأعمال ووظائف شرعية لا بد له منها، ولا محيص له عنها، يقوم فيها بحق ربه تعالى، فإن أوغل فى عمل شاق فربما قطعه عن غيره، ولا سيما حقوق الغير التى تتعلق به، فيكون عبادته أو عمله الداخلى فيه قاطعاً عما كلفه الله به فيقصر فيه، فيكون ملوماً غير معذور؛ إذ المراد منه القيام بجميعها على وجه لا يخل بواحد منها ولا بحال من أحواله»^(١).

وقال الإمام الذهبى: «وكل من لم يزم نفسه فى تعبه وأوراده بالسنة النبوية يندم، ويترهب، ويسوء مزاجه، ويفوته خير كثير من متابعة سنة نبيه الرؤوف الرحيم بالمؤمنين، الحريص على نفعهم، وما زال - ﷺ - معلماً للأمة أفضل الأعمال، وأمرأً بهجر التبتل والرهبانية التى لم يبعث بها، فنهى عن سرد الصوم، ونهى عن الوصال، وعن قيام أكثر الليل إلا فى العشر الأخير، ونهى عن العزبة للمستطيع، ونهى عن ترك اللحم، إلى غير ذلك من الأوامر والنواهي، فالعابد بلا معرفة لكثير من ذلك معذور مأجور، والعابد العالم بالآثار المحمدية، المتجاوز لها مفضول مغرور، وأحب الأعمال إلى الله تعالى أდومها وإن قل»^(٢).

(١) «الموافقات»: ١٠٢-٩٦/٢، نقلاً عن كتاب: «الاعتدال فى التدين فكراً وسلوكاً ومنهجاً» للدكتور محمد الزحيلي: ٥٧-٥٦.

(٢) نزهة الفضلاء»: ١ / ٢٢٧.

ثانياً، الأمراض السلوكية^(١):

فمنها:

أ- الترخص والتساهل فى أمر الصغائر:

وهذا المرض قد لا يُفطن إليه، وهو يفعل فعله فى النفوس فتخلد إلى الأرض وتثقل وتدع العمل والدعوة، بل قد تدع الالتزام بدين الإسلام، والعياذ بالله.

أعرف رجلاً كان صاحب عبادة ظاهرة ودعوى عريضة، فعرض له شىء من التساهل والترخص فأخذ به، واستمرأه وأكثر منه حتى رأبته بعد ذلك عبرة للمعتبر.

وأعرف آخر كان يملأ الدنيا ضجيجاً، ويكثر من ادعاء العلم والعمل حتى أخذ بالرخص وترك العزائم بالكلية فصار فى عداد العوام المقصرين. وقد قال ابن مسعود رضى الله عنه:

«إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهم مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيعُ القوم^(٢) فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود، حتى جمعوا سواداً^(٣)، فأججوا ناراً وأنضجوا ما قذفوا فيها»^(٤).

(١) أى العامل الثانى من عوامل هدم الثبات، ولقد سبق ذكر العامل الأول وهو: الأمراض القلبية.

(٢) أى طعامهم.

(٣) أى مقداراً صالحاً.

(٤) قال الإمام الهيثمى: «رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط ورجالهما رجال الصحيح غير عمران بن داود القطان وقد وثق»: انظر «مجمع الزوائد»: ١٠/١٩٢.

وقال سليمان التيمي: «لو أخذت برخصة كل عالم اجتمع فيك الشر كله»^(١).

ودخل إسماعيل القاضي على الخليفة العباسي المعتضد بالله، فدفع إليه كتاباً فنظر فيه فإذا قد جُمع له فيه الرخص من زلل العلماء، فقال: مصنف هذا زنديق.

قال: ألم تصح هذه الأحاديث؟

قال: بلى، ولكن من أباح المسكر^(٢) لم يبيح المتعة، ومن أباح المتعة لم يبيح الغناء، وما من عالم إلا وله زلّة، ومن أخذ بكل زلل العلماء ذهب دينه، فأمر المعتضد بإحراق الكتاب^(٣).

ب- الاستعجال:

وهو مرض عُضال، يدل على سوء في التربية والإعداد، وهو فاتك بالثبات ومذهب له، وذلك لأنه يناقضه من كل وجه، فالثابت لا يكون عَجَلًا، والعَجَل لا يكون ثابتًا؛ وذلك لأن العَجَل يريد تحقيق أهدافه بسرعة فإن لم يحدث ذلك فلعله لا يثبت ويتكسر والعياذ بالله، والعجلة من جبلة الإنسان، قال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وإنما يهذب الإنسان اندفاعه وعجلته بالإيمان فيحصل له الثبات والطمأنينة والتأني والرسوخ.

(١) «نزهة الفضلاء»: ٥٢٩/١.

(٢) المقصود بالمسكر -هنا- النبيذ المختلف فيه لا الخمر المجمع على أنها حرام.

(٣) المصدر السابق: ٩٩١/٢.

وهذا الإنسان العَجَلِ تكون شئونه غير منضبطة، ويكون من رباهم على شاكلته؛ هذا إن أحسن التربية فى الأصل، وإلا فإن سمة من يربيهم هذا العَجَلِ أنهم -مثله- ضعاف ينقطعون لأقل سبب ولأدنى شبهة أو شهوة أو هوى، ورحم الله القائل:

«من لم تكن له بداية محرقة، لم تكن له نهاية مشرقة»، والعَجَلِ كانت بداياته سريعة هينة لذلك فإن نهاياته ليست مشرقة ولا مثمرة ومليئة بالأشواق والشكوك.

وهناك فرق مهم بين الاستعجال والإيجابية، فقد يُظن أن الإيجابى الذى يودى مهماته بقوة وحزم عَجَلٌ متسرع، والحق أن المؤمن لابد له من تأدية التكاليف والواجبات بقوة وإيجابية يستبق بها أهل الباطل وحزبهم المخذول، ومن كان كذلك فلا يُرمى بالعجلة والتسرع.

ج- كثرة المزاح وانعدام الجدية أو ضعفها:

المزاح المعتدل الهادف من سنن سيد المرسلين -ﷺ- فقد كان يمازح أصحابه -رضى الله عنهم- ولا يقول إلا حقًا؛ وهذا مشهور معروف من سيرته، ﷺ.

لكننا نرى اليوم عددًا من المحسوبين على العلم والدعوة وقد غلب هزلهم جدّهم، وكثُر مزاحهم، وصاروا لا يُلْفَوْنَ إلا هازلين مقهقهين، وهذا ليس حال العقلاء، قال ابن عقيل يصف طلبة العلم:

«غلب عليهم الجحد، وقلّ عندهم الهزل»^(١).

(١) «الفتور»: ٤٠-٤١.

وقال البنا، رحمه الله تعالى:

«المجاهد الذى ينام ملء جفنيه، ويأكل ملء ماضغيه، ويضحك ملء شذقيه، ويقضى وقته لاهياً لاهياً عابثاً فبهيات أن يكون من الفائزين، أو يكتب فى عداد المجاهدين»^(١).

وقال -رحمه الله تعالى- أيضاً:

«أستطيع أن أتصور المجاهد: شخص قد أعد عدته، وأخذ أهبته، ومملك عليه الفكر فيما هو فيه نواصى نفسه، وجوانب قلبه، فهو دائم التفكير، عظيم الاهتمام، على قدم الاستعداد أبداً، إن دُعى أجاب، أو نودى لى، غدوه ورواحه، وحديثه وكلامه، وجده ولعبه لا يتعدى الميدان الذى أعد نفسه له»^(٢).

من كان كذلك فهو الثابت -إن شاء الله تعالى- ومصيبة أكثرنا أننا صرنا نتفنن فى الطعام والشراب والتنعم والترفيه، واختراع المضحكات والتوافه لنجلب ضحك الآخرين، وكأن استدامة الهزل والإغراق فى المضحكات والملذات بينى النفوس، أو يربى الرجال الثابتين المضحكين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

ثالثاً: مؤثرات خارجية:

أ- الفتن والابتلاءات والمحن:

هذا العامل من أفتك العوامل بالثبات، وهو أفعالها سلباً فى النفس الإنسانية التى لم يخالطها الإيمان، ولم يهذبها القرآن، وصحاح الأخبار

(١) (٢) «الفتور»: ٤٠-٤١.

والآثار، ومما يساعد هذا العامل على شدة الفتك بالنفوس وإعظام وساوس الشيطان فيها أنه فى وقت المحن والشدائد يفتقر المرء إلى التثبيت من قبل إخوانه أو مشايخه، وذلك لأنهم إما أن يكونوا قد غُيِّبوا عنه لسبب أو لآخر، أو أنهم مفتقرون إلى التثبيت افتقاره إليه، أو أن صوتهم - فى نفس المبتلى الممتحن - لا يقوى على مطاولة أصوات الفتن والمحن، ولهذا فإن على الإنسان أن يُعدَّ نفسه مبكراً لتلقى الابتلاءات والمحن بنفس راضية ثابتة مطمئنة، وليعلم أنه لا بد له من الابتلاء إما فى نفسه، أو فى أهله، أو فى ماله، أو فى إخوانه، قال الله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

وسئل رسول الله ﷺ عن أشد الناس بلاءً فقال:

«الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجلُ على حَسَبِ دينه فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان فى دينه رقةً ابتلاه الله على حَسَبِ دينه، فما يبرح البلاءُ بالعبد حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة»^(١).

«إن الذين يتصدون للدعوة، ويسيرون فى طريق الإصلاح والتغيير والهداية لا بد أن يتعرضوا للمحنة، ولا بد أن يواجهوا بأساء الحياة وضراءها، ويخطئ من يظن أن طريق الدعوة دائماً محفوف بالورد

(١) أخرجه الإمام الترمذى وقال: حديث حسن صحيح، وانظر - للتوسع فى تخريج

الحديث - «فتح البارى»: ٢١ / ٢٢١ - ٢٢٢.

الثبات

والرياحين، ومفروش بالزينات والسجاجيد، ومغتص بالمودعين والمستقبلين، بل على الداعية أن يعلم أن الطريق قد تكون مفروشة بالصخور الكبيرة العاتية، والأشواك اليابسة المؤذية، والأشقياء العتاة المجرمين، فإن لم يكن معتاداً على الثبات والاحتمال، متروضاً على الصبر والمصابرة فإنه ينهزم في أول لحظات المحنة، ويتقهقر في أول لمحات البلاء، ويقعد مع القاعدين اليائسين المثبتين»^(١).

«أما المؤمنون فهم أصبر الناس على البلاء، وأثبتهم في الشدائد، وأرضاهم نفساً في الملمات.

عرفوا قصر عمر الدنيا بالنسبة لعمر الخلود فلم يطمعوا أن تكون دنياهم جنة قبل الجنة.. وعرفوا سنة الله في هذا النوع من الخليقة (الإنسان) الذي ابتلى بنعمة حرية الإرادة والاستخلاف في الأرض، فلم يطمعوا أن يكونوا ملائكة أولى أجنحة.. وعرفوا من سنن أنبيائهم ورسلمهم أنهم أشد الناس بلاءً في الحياة الدنيا، وأقل الناس استمتاعاً بزخرفها، فلم يطمعوا أن يكونوا خيراً منهم، ولهم فيهم أسوة حسنة..

قال ابن القيم:

يا مخنث العزم: الطريق تعب فيه آدم، وناح فيه نوح، وألقى في النار إبراهيم، وتعرض للذبح إسماعيل، ونشر بالمنشار زكريا، وذبح السيد الحصور يحيى»^(٢).

(١) «صفات الداعية النفسية»: الدكتور عبدالله علوان رحمه الله: ٤٧.

(٢) «الإيمان والحياة»: الدكتور يوسف القرضاوى: ١٩٤-١٩٥.

«إنها سنة الله القديمة في تمحيص المؤمنين وإعدادهم ليدخلوا الجنة وليكونوا لها أهلاً: أن يدافع أصحاب العقيدة عن عقيدتهم، وأن يلقوا في سبيلها العنت والألم والشدة والضرر، وأن يتراوحوا بين النصر والهزيمة، حتى إذا ثبتوا على عقيدتهم لم تزعزعهم شدة ولم ترهبهم قوة، ولم يهنوا تحت مطارق المحنة والفتنة... استحقوا الجنة لأن أرواحهم قد تحررت من الخوف، وتحررت من الذل، وتحررت من الحرص على الحياة أو على الدعة والرخاء فهي عندئذ أقرب ما تكون إلى عالم الجنة وأرفع ما تكون عن عالم الطين: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْأَسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]... إن هذا السؤال من الرسول والذين آمنوا معه، من الرسول الموصول بالله، والمؤمنين الذين آمنوا بالله، إن سؤالهم: متى نصر الله؟ ليصور مدى المحنة التي تزلزل مثل هذه القلوب الموصولة... وعندما تثبت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة عندئذ تتم كلمة الله ويجيء النصر من الله..

إن نصر الله مدخر لمن يستحقونه، ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية، الذين يثبتون على البأساء والضراء، الذين يصمدون للزلزلة، الذين لا يحنون رؤوسهم للعاصفة، الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله وعندما يشاء الله، وحتى حين تبلغ المحنة ذروتها فهم يتطلعون فحسب إلى نصر الله لا إلى أى حل آخر، ولا إلى أى نصر لا يجيء من عند الله، ولا نصر إلا من عند الله، بهذا يدخل المؤمنون الجنة، مستحقين لها جديرين بها بعد الجهاد والامتحان والصبر والثبات والتجرد لله وحده..

هذا هو الطريق كما بينه الله - سبحانه - لكل جماعة مسلمة فى كل جيل، هذا هو الطريق: إيمان وجهاد، ومحنة وابتلاء، وصبر وثبات، وتوجه إلى الله وحده ثم يجىء النصر»^(١).

«فمن مسه الضر فى فتنة من الفتن، وفى ابتلاء من الابتلاءات، فليثبت ولا يتزعزع، وليستبق ثقته برحمة الله وعونه، وقدرته على كشف الضراء، وعلى العوض والجزاء»^(٢).

«ولا بد من تربية النفوس بالبلاء، ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد، وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] لا بد من هذا البلاء ليؤدى المؤمنون تكاليف العقيدة كى تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا فى سبيلها من تكاليف، والعقائد الرخيصة التى لا يؤدى أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم التخلى عنها عند الصدمة الأولى، فالتكاليف - هنا - هى الثمن النفسى الذى تعز به العقيدة فى نفوس أهلها قبل أن تعز فى نفوس الآخرين، وكلما تألموا فى سبيلها وكلما بذلوا من أجلها كانت أعز عليهم، وكانوا أضنَّ بها..

ولا بد من البلاء كذلك ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى، فالشدائد تستجيش مكنون القوى ومذخور الطاقة، وتفتح فى القلب

(١) «طريق الدعوة فى ظلال القرآن»: ٣٥١ - ٣٥٣.

(٢) المصدر السابق: ٢٣٠.

منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المؤمن في نفسه إلا تحت مطارق الشدائد، والقيم والموازن والتصورات ما كانت لتصحّ وتدقّ وتستقيم إلا في جو المحنة التي تزيل الغبش عن العيون والران على القلوب، وأهم من هذا كله، أو القاعدة لهذا كله الالتجاء إلى الله وحده حين تهتز الأسناد كلها، وتتوارى الأوهام، وهي شتى، ويخلو القلب إلى الله وحده لا يجد سنداً إلا سنده، وفي هذه اللحظة قد تنجلي الغشاوات، وتفتح البصيرة وينجلي الأفق على مد البصر: لا شيء إلا الله، لا قوة إلا قوته، لا حول إلا حوله، لا إرادة إلا إرادته، لا ملجأ إلا إليه.. لذلك فإن الله قد وضع الابتلاء لينكشف المجاهدون ويتميزوا، وتصبح أخبارهم معروفة، ولا يقع الالتباس في الصفوف، ولا يبقى مجال لخفاء أمر المنافقين، ولا أمر الضعاف الجزعين..»^(١).

«وما بالله -حاش لله- أن يعذب المؤمنين بالابتلاء وأن يؤذيههم بالفتنة، ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة، فهي في حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق، وإلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات، وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام... وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات فلا يبقى صامداً إلا أصلبها عوداً، وأقواها طبيعة، وأشدّها اتصالاً بالله وثقة فيما عنده من الحسينين: النصر أو الأجر»^(٢).

(١) «طريق الدعوة في ظلال القرآن»: ٢٢١-٢٢٢.

(٢) المصدر السابق: ٢٢٥.

«إن العبد المؤمن يرجو ألا يتعرض لبلاء الله وامتحانه، ويتطلع إلى عافيته ورحمته، فإذا أصابه بلاء بعد هذا صبر له، وهو مدرك لما وراءه من حكمة، واستسلم لمشيئة الله واثقاً من حكمته متطلعاً إلى رحمته وعافيته بعد الابتلاء»^(١).

أنواع المحن والابتلاءات والفتن:

للفتن والابتلاءات صور كثيرات، تتعدد بتعدد صور وأشكال النفس الإنسانية، وأحوالها المختلفة في السراء والضراء، وتختلف باختلاف البيئة والأشخاص المحيطين، وتعظم وتشتد أو تهون وتيسر بقدر معونة الله ورحمته، فمن صور الفتنة:

١- تعرض المؤمن للأذى المباشر من الباطل وأهله، ثم إنه لا يجد النصير الذي ينصره ويدفع عنه، ولا يجد القوة التي يدفع بها الطغيان، وهي صورة عنيفة للفتنة لكن هنالك صوراً أعظم:

٢- «فتنة الأهل والأحباء الذين يخشى عليهم أن يصيبهم الأذى بسببه وهو لا يملك عنهم دفعا، وقد يهتفون به ليسالم أو ليستسلم، وينادونه باسم الحب والقربة واتقاء الله في الرحم التي يعرضها للأذى والهلاك.

٣- وهناك فتنة إقبال الدنيا على المبطلين ورؤية الناس لهم ناجحين مرموقين، تهتف لهم الدنيا... وتتحطم في طريقهم العوائق... وتصفو لهم الحياة، وهو مهمل منكر لا يحسن به أحد، ولا يحامى عنه أحد،

(١) المصدر السابق: ٢٢٣.

ولا يشعر بقيمة الحق الذى معه إلا القليلون من أمثاله الذين لا يملكون من أمر الحياة شيئاً .

٤- وهناك فتنة الغربية فى البيئة والاستيحاش فى العقيدة . .

٥- وهناك فتنة . . . أن يجد المؤمن أمماً ودولاً غارقة فى الرذيلة وهى مع ذلك راقية فى مجتمعها، متحضرة فى حياتها، يجد الفرد فيها من الرعاية والحماية ما يناسب قيمة الإنسان ويجدها غنية قوية، وهى مشاقة لله .

٦- وهناك الفتنة الكبرى، أكبر من هذا كله وأعنف، فتنة النفس والشهوة، وجاذبية الأرض وثقله اللحم والدم، والرغبة فى المتاع والسلطان، أو فى الدعة والاطمئنان، وصعوبة الاستقامة على صراط الإيمان والاستواء على مرتقاه مع المعوقات والمثبطات فى أعماق النفس، وفى ملابسات الحياة، وفى منطق البيئة، وفى تصورات أهل الزمان، فإذا طال الأمد، وأبطأ نصر الله كانت الفتنة أشد وأقسى، وكان الابتلاء أشد وأعنف، ولم يثبت إلا من عصم الله^(١) .

إذاً أخى القارئ يتبين من العرض السابق أن أصعب عوامل هدم الثبات هو المحن والفتن والابتلاءات، وذلك للآثار العاصفة التى يخلفها فى النفس الإنسانية، وللتدمير الواضح الحاصل فى شخصية المبتلى غير الثابت وغير الموفق، والعياذ بالله .

(١) «طريق الدعوة فى ظلال القرآن»: ٢٢٤-٢٢٥ .

ب- اختلاف المسلمين وتفرقهم^(١):

وهذا الأمر يؤثر على ثبات المسلم، وسبب إضعافه الثبات أو إذهابه له إما الملل والكلال من حال المسلمين وتفرقهم واليأس من إصلاحهم، وإما إساءة الظن بأحوال الملتزمين الصالحين؛ فيوسوس الشيطان للإنسان أن لو كان في هؤلاء خير ما اختلفوا هذا الاختلاف، وهناك سبب ثالث مهم في تأثير الاختلاف في الثبات ألا وهو عدم قدرة الشخص الناظر لحال المتفرقين المختلفين على فهم سبب خلافهم أو متابعة جدلهم ومرائهم.

لذلك على المسلم العاقل ألا ينظر إلى الاختلاف العقيم والجدل والمراء، وأن يجعل ذلك وراء ظهره ليحافظ على يقينه وثباته.

ج- ضغط الأهل والولد:

إن من عوامل الفتك بالثبات ضغط الأهل من والد ووالدة وزوج، وضغط الولد على المرء، فيحصل له نوع رقة، أو نوع تخوف عليهم، فيستجيب لهم، وقد تكون تلك الاستجابة الحاصلة مؤثرة في ثباته، أو ناقضة له بالكلية والعياذ بالله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَوْا وَتَصَفَحُوا وَتَغَفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٤].

ولهذه الآية الكريمة قصة دالة على المراد:

فعن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: «هؤلاء رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فهموا أن يعاقبوهم فأنزل الله هذه الآية ﴿وَإِنْ تَعَفَوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١).

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٤]: «يحمل الرجل على قطيعة الرحم أو معصية ربه فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه» (٢).

وهذا عياش بن أبي ربيعة ينبئه أبو جهل والحارث بن هشام أن أمه «نذرت ألا يمس رأسها فرق لها» ثم فتن بعد ذلك، وكان سبب فتنته الأول هو ضغط الوالدة عليه (٣).

واسمع إلى المحاورة التي جرت بين سعد بن أبي وقاص -رضى الله عنه- وأمّه، وكان باراً بها، فضغطت عليه لثنيه عن الإسلام فقالت:

- يا سعد! ما هذا الدين الذى قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا أو لا أكل ولا أشرب حتى أموت، فتعير بى فيقال: يا قاتل أمه.

(١) تفسير القرآن العظيم: ١٦٥/٨، وقد أخرج الأثر الإمام الترمذى وقال: حسن صحيح، انظر «سنن الترمذى»: ٤١٩/٥ - ٤٢٠.

(٢) المصدر السابق.

- قلت: لا تفعلنى يا أمه؛ إنى لا أدع دينى هذا لشيء، فمكثت يوماً لا تأكل ولا تشرب وليلة، وأصبحت وقد جهدت، فلما رأيت ذلك قلت: يا أمه، تعلمين والله لو كان لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت دينى، إن شئت فكلى أو لا تأكلنى، فلما رأيت ذلك أكلت^(١).

وهذا مصعب بن عمير -رضى الله تعالى عنه- كانت أمه تحبه، وكانت «مليئة كثيرة المال، تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقه وكان أعطر أهل مكة، يلبس الحضرمى من النعال... فبلغه أن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام فى دار أرقم بن أبى الأرقم، فدخل عليه فأسلم وصدق به، وخرج فكنتم إسلامه خوفاً من أمه وقومه، فكان يختلف إلى رسول الله ﷺ سرا، فبصر به عثمان بن طلحة يُصلى فأخبر أمه وقومه، فأخذوه فحبسوه، فلم يزل محبوساً حتى خرج إلى أرض الحبشة فى الهجرة الأولى، ثم رجع مع المسلمين حين رجعوا، فرجع متغير الحال قد خرج، يعنى غلظ، فكفت أمه عنه من العذل»^(٢).

واسمع لما جرى على هذا الصحابى الكريم لما عاد من المدينة لشأن من شؤونه قبل أن يهاجر الهجرة الأخيرة.

«قدم مكة فجاء منزل رسول الله ﷺ أولاً ولم يقرب منزله، فجعل يخبر رسول الله ﷺ عن الأنصار وسرعتهم إلى الإسلام.. فسر رسول الله ﷺ بكل ما أخبره، وبلغ أمه أنه قد قدم فأرسلت إليه: يا عاق أتقدم بلداً أنا فيه لا تبدأ بى؟ فقال: ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله ﷺ.

(١) «نزها الفضلاء»: ٢٢/١.

(٢) «طبقات ابن سعد»: ١١٦/٣.

فلما سلم على رسول الله ﷺ وأخبره بما أخبره ذهب إلى أمه فقالت: إنك لعلى ما أنت عليه من الصبأة^(١) بعد؟ قال: أنا على دين رسول الله ﷺ وهو الإسلام الذى رضى الله لنفسه ولرسوله. قالت: ما شكرت ما رثيتك مرة بأرض الحبشة، ومرة بيثرب. فقال: أفر بديني إن تفتنوني. فأرادت حبسه فقال: لئن أنت حبستني لأحرص على قتل من يتعرض لى. قالت: فاذهب لشأنك، وجعلت تبكى، فقال: يا أمه: إنى لك ناصح، عليك شفيق، فاشهدى أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. قالت: والثواقب^(٢) لا أدخل فى دينك فيزرى بى ويضعف عقلى ولكنى أدعك وما أنت عليه وأقيم على ديني^(٣).

أرأيت أخى كيف يثبت المرء الصالح أمام أعظم الضغوط وهو ضغط الوالدة المحبة له العطوفة عليه.

يقول الأستاذ فتحى يكن:

«عرفت أنماطاً غريبة من الآباء، كانوا يُغرون أبناءهم من التحقوا بدعوة الإسلام وساروا فى طريق الحق ليحولوا بينهم وبين دعوتهم وإسلامهم، ولو بتشجيعهم على الرذيلة وارتداد أماكن اللهو ليصدوهم عن سبيل الله. وعرفت آخرين كانوا يضربون أبناءهم ويضيقون عليهم فى المال والرزق ليردوهم عن سبيل الله.

(١) أى الكفر، وكانوا يسمون من أسلم: صابئاً.

(٢) أى النجوم.

(٣) «طبقات ابن سعد»: ١١٩/٣.

ولقد حذر القرآن الكريم من الإذعان لضغوط الأهل -آباء وأبناء- وحض على الثبات والصمود والجهاد في سبيل الله، فقال تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] (١).

د- التزيب قبل التحصر (٢):

ومعناه أن يقفز الشخص إلى مكانة ليست له، وأن يتصدر قبل الأوان، ويترأس قائداً نفسه للهوان.

ورحم الله القائل: «من تصدر قبل أوانه فقد تصدى لهوانه» (٣).

وهذه مشكلة تربوية كبيرة، إذ ما إن يبدو على الناشئ علائم النبوغ والتفوق إلا وتحوطه كلمات الثناء المهلكة، ونظرات الإعجاب المزلقة، وهمسات الإطراء الفاتنة، فيضعف ثباته، ويقل عزمه، وتقترب همته، وقد يوضع في مكان غير مناسب له تعجلاً واستخفافاً بالسنن الكونية فيكون في ذلك هلاكه.

(١) انظر «المتساقطون على طريق الدعوة»: ١١٨.

(٢) معنى التزيب قبل التحصر، هو أن العنب إذا ظهرت ثمرته فإنه يمر بمرحلة الحصر ثم النضج ثم يتزيب، فمن تصدر قبل الأوان، وقبل أن ينضج بما فيه الكفاية فإن حاله يكون مبسّراً ناقصاً كحال الزبيب الحزب غير الناضج.

(٣) هو أبو سهل الصعلوكي كما في «الكشكول» لبهاء الدين العاملي: ٦٥.

يقول الأستاذ فتحي يكن، حفظه الله تعالى:

«أعرف إنساناً اختير لعضوية مجمع وهو لما يصبح أهلاً لهذا المكان بعد، وعندما انكشف واقعه واستبان خطأ اختياره، وتكررت إساءاته، وبات لزاماً على قيادته معالجة أمره واستبداله بغيره لم يكن منه إلا أن قدم استقالته وترك العمل إلى غير رجعة.

وأعرف آخر اختير لمسؤولية تربوية قبل أن تكتمل تربيته وتستقيم أخلاقه، والذي رشحه لذلك قدرته الخطائية والفكرية ليس إلا، وعندما تسبب بأخطاء، ووقع بانحرافات يصعب وصفها ولا يصح ذكرها وقعت المأساة التي ذهبت به وبمن كانوا معه، وسقطوا من حياة الدعوة بالكلية»^(١).

هـ- التأثير السلبي لبعض وسائل الإعلام:

وسائل الإعلام مهمة، ولها وظيفة خطيرة، وهي ذات تأثير فعال في العقول والقلوب، وجل وسائل الإعلام -اليوم- إنما تخضع لتوجيهات وتأثيرات تخالف تعاليم الإسلام العظيمة، وأكثرها موجه لإضعاف شأن الإسلام في النفوس، وذلك الإلقاء الفاسد الذي تزاوله تلك الوسائل يضعف أو يذهب بثبات كثير من العاملين الصادقين، الذين قد يعتر بهم الضعف من جراء ما يلقى عليهم، وإليك أخي بعض تلك الطرق:

(١) «المتساقطون على طريق الدعوة»: ٥٩-٦٠.

١- إضعاف الوازع الإسلامى فى النفوس، وذلك بتهوين شأن الحلال والحرام، وحث الناس -بطريق مباشر أو خفى- على التفلت من شعائر الإسلام وواجباته.

٢- التخطيط لإثارة النعرات والقوميات الكفيلة بالقضاء على قوة المسلمين واجتماعهم على كلمة سواء.

٣- تضخيم قوة الكافرين من يهود و صليبيين، وإيهام المسلمين أنه لا سبيل لهم للوصول إلى قوة أولئك الكفرة.

٤- هدم الرموز الإسلامية التى جاهدت فضحت وبذلت، وإعلاء شأن نكرات لا صلة لهم بالعمل والجهاد.

٥- التقليل من شأن التجمعات الإسلامية الصادقة -العاملة فى البلاد الإسلامية أو الكافرة- التى تعمل على إعلاء دين الله، وتضخيم سلبياتها وأخطائها، وتصوير ذلك الخطأ بأنه أمر ناشئ عن أصل التجمع لا عن خطأ بعض أفرادها، كما هو الحال والواقع.

٦- إيهام العاملين بأن النجاح أو الفشل فى الوصول إلى الهدف المنشود -وهو إعلاء دين الله فى الأرض- هو المقياس لنجاح أو فشل العاملين، بينما الأمر غير ذلك فى ديننا العظيم؛ إذ النتائج بيد الله سبحانه وحده، فقد قال تعالى: ﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

«والتدبر لآيات القرآن يجد أن كل الآيات التى ذكر فيها النصر نزلت بالمدينة، وهذه لفظة جديدة بأن يتدبرها الدعاة إلى الله فى كل أرض وفى

كل جيل، فهي كفيّلة بأن تريهم معالم الطريق واضحة بلا غبش، وأن تثبت خطى الذين يريدون أن يقطعوا الطريق إلى نهايته كيف كانت هذه النهاية، ثم يكون قدر الله بدعوتهم وبهم ما يكون، فلا يلتفتون أثناء الطريق الدامى المغروس بالجماجم والأشلاء وبالعرق والدماء إلى نصر أو غلبة، أو فيصل بين الحق والباطل فى هذه الأرض، ولكن إذا كان الله يريد أن يصنع بهم شيئاً من هذا لدعوته ولدينه فسيتم ما يريد الله، لا جزاء على الآلام والتضحيات، لا فالأرض ليست بجزء، وإنما تحقيقاً لقدر الله فى أمر دعوته ومنهجه على أيدي أناس من عباده يختارهم ليمضى بهم من الأمر ما يشاء، وحسبهم هذا الاختيار الكريم الذى تهون إلى جانبه وتصغر هذه الحياة، وكل ما يقع فى رحلة هذه الأرض من سراء أو ضراء.

إن القرآن الكريم ينشئ قلباً يعدها لحمل الأمانة، وهذه القلوب يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع -وهى تبذل كل شىء وتحتمل كل شىء- إلى شىء فى هذه الأرض ولا تنظر إلا إلى الآخرة، ولا ترجو إلا رضوان الله، وتضحية حتى الموت بلا جزاء فى هذه الأرض، ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة وغلبة الإسلام وظهور المسلمين، بل ولو كان هذا الجزاء هو هلاك الظالمين: يأخذهم أخذ عزيز مقتدر كما فعل بالمكذبين الأولين^(١).

فلا شك -إذاً- أن تلك الطرق التى تسلكها بعض وسائل الإعلام كفيّلة بإذهاب ثبات كثير من العاملين إلا من وفقه الله.

(١) «معالم على الطريق»: نقلاً عن كتاب «من ركائز الدعوة» للدكتور مجدى الهالى:

و- المجتمع الفاسد^(١):

إذ المجتمع الصالح المطيع لله -تبارك وتعالى- يساعد على تقوية الثبات عند المسلم وشد أزره، وبالعكس فإن المجتمع الفاسد مُذهب للثبات أو مضعف له، فالقيم في بلاد الكافرين إنما هو على خطر عظيم، فليقل من ذلك أو ليستكثر، ومخالط الفاسقين على خطر عظيم، وكل قرين بالمقارن يقتدى.

يقول الأستاذ فتحى يكن:

«أذكر أن أحد الإخوة سافر إلى أمريكا للدراسة، وكان مثال المسلم فى بلده، والقذوة الحسنة بين إخوانه، ومكث فى أمريكا بضع سنين، وعاد بعدها إنساناً آخر لا يمتّ بأذى صلة إلى ماضيه القريب، لقد كان أثر البيئة عليه كبيراً وكبيراً جداً بحيث أفقدته كل بريق كان يتحلى به قبل سفره المشؤوم.

وإنسان آخر سافر إلى نفس هذه البيئة، ولم يتمكن من التماسك والثبات أكثر من سنة غرق بعدها إلى فوق أذنيه فى المعاصى ثم انقطعت أخباره واختفى أثره، ولا زلت حتى اليوم أذكر رسائله إلى خلال عامه الأول وهى مليئة بالنقد والتعريض بأكثر العاملين فى الحقل الإسلامى من الدعاة والقياديين وكأنه فى مستوى من الالتزام لا يدانيه فيه أحد، ثم كانت النتيجة أنه نكص على عقبيه..»^(٢).

(١) استقيت فكرة هذه الفقرة من كتاب «من أخبار المتكسين»: ١٦١.

(٢) «التساقطون على طريق الدعوة»: ١٢٠.

== صور على احتضار الثابتين ==

قد جرت عادة بعض المتكلمين فى الثبات أن يذكروا قصص الضعاف والمتكسين حال الموت، وما يصدر منهم من كلام يفصح ما كانوا فيه أثناء حياتهم، وليست بنا حاجة -والله تعالى أعلم- للكلام على هؤلاء الضعاف، إنما أريد أن أذكر حال الثابتين الأقوياء حال الممات، عسى أن نكون مثلهم، وأن نفتدى بفعالهم، وأردت أن تكون تلك الأخبار الخاتمة المرفقة لهذا البحث، والله الموفق.

من صور احتضار الصالحين:

١- لما احتضر أبو بكر -رضى الله تعالى عنه- تمثلت عائشة رضى الله تعالى عنها بهذا البيت:

أعاذل^(١) ما يعنى الحذار عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر
فقال أبو بكر رضى الله عنه: ليس كذلك يا بنية، ولكن قولى:
﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩] (٢).

٢- ولما حضر معاذاً -رضى الله تعالى عنه- الموت قال: «مرحباً بالموت، مرحباً زائراً، مُغَيَّبٌ حَيِّبٌ جَاءَ عَلَى فَاقَةٍ، اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ كُنْتُ أَخَافُكَ فَأَنَا الْيَوْمَ أَرْجُوكَ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَحَبُّ الدُّنْيَا

(١) أى لائم.

(٢) انظر «الزهد للإمام أحمد: ١٠٩.

وطول البقاء فيها لكرى الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لظماً الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر»^(١).

٣- ولما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة قال: «أجلسوني، فأجلسوه، فقال: أنا الذى أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت - ثلاث مرات- ولكن لا إله إلا الله، ثم رفع رأسه فأحد النظر، فقيل له فى ذلك، فقال: إني لأرى حضرة ما هم بإنس ولا جن، ثم قبض رحمه الله»^(٢).

وقالت فاطمة بنت عبد الملك - امرأة عمر بن عبد العزيز وابنة عمه -: كنت أسمع عمر - رحمه الله تعالى - فى مرضه الذى مات فيه يقول: اللهم اخف عليهم موتى ولو ساعة من نهار، فلما كان اليوم الذى قبض فيه خرجت من عنده فجلست فى بيت آخر بينى وبينه باب، وهو فى قبة له فسمعتة يقول:

﴿ تَلِكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا
وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣] ثم هداً - أى سكن صوته - فجعلت لا أسمع له حركة ولا كلاماً، فقلت لوصيف له: انظر أأنائم هو؟ فلما دخل صاح فوثبت فإذا هو ميت»^(٣).

(١) «الزهد» للإمام أحمد: ١٨٠ - ١٨١.

(٢) «تحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين» للزبيدي: ١٤/١٩٩، وقال الزبيدي: أخرجه أبو نعيم فى «الحلية».

(٣) المصدر السابق: ١٤/١٩٧ - ١٩٨، وقال الزبيدي: رواه أبو نعيم فى «الحلية».

٤- ولما حضرت بلالاً الوفاة قالت امرأته: واحزنناه، فقال: «بل واطربناه، غداً نلقى الأحبة، محمداً وحزبه»^(١).

٥- ولما طعن حرام بن ملحان -رضى الله عنه- بالرمح قال: «الله أكبر، فزت ورب الكعبة»^(٢).

٦- لما حضرت الوفاة أنس بن مالك قال: «لقنوني لا إله إلا الله» فلم يزل يقولها حتى قبض^(٣).

٧- وفتح عبد الله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصفات: ٦١] ^(٤).

٨- وكان مكحول الشامي قد غلب عليه الحزن، فدخلوا عليه في مرض موته وهو يضحك، فقيل له في ذلك، فقال: «ولم لا أضحك وقد دنا فراق من كنت أحذره، وسرعة القدوم على من كنت أرجوه وأؤمله»^(٥).

٩- ولما نزل بابن إدريس الموت بكت ابنته فقال: «لا تبكى، فقد ختمت القرآن في هذا البيت أربعة آلاف ختمة»^(٦).

(١) «إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين»: ٢٠٨.

(٢) المصدر السابق: ٢١١.

(٣) المصدر السابق: ٢١٢.

(٤) انظر «إتحاف السادة المتقين»: ٢١٤/١٤.

(٥) المصدر السابق: ٢١٩/١٤.

(٦) «إتحاف السادة المتقين»: ٢٢٠.

١٠- ولما حضرت أبا بكر بن عياش الوفاة بكت أخته، فقال لها: «ما يبكيك؟ انظري إلى تلك الزاوية التي في البيت، قد ختم أخوك في هذه الزاوية ثمانية عشر ألف ختمة»^(١).

١١- وحضرت مالكاً الوفاة فتشهد ثم قال: «الله الأمر من قبل ومن بعد»^(٢).

١٢- ولما حضرت آدم بن أبي إياس الوفاة ختم القرآن ثم قال: «بحبى لك إلا رفقت بى فى هذا المصرع، كنت أوملك لهذا اليوم، كنت أرجوك، ثم قال: لا إله إلا الله، ثم قضى»^(٣).

١٣- ودخل المزنى على الشافعى -رحمة الله عليهما- فى مرضه الذى توفى فيه، فقال له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟

قال: أصبحت من الدنيا راحلاً، وللإخوان مفارقاً، ولسوء عملى ملاقياً، ولكأس المنية شاربياً، وعلى الله -تعالى- واردة، ولا أدرى: أروحى تصير إلى الجنة فأهنيها، أم إلى النار فأعزيها؟ ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبى وضافت مذاهبى جعلت رجائى نحو عفوك سلماً
تعاظمنى ذنبى فلما قرنته بعفوك ربى كان عفوك أعظماً
فمازلت ذا عفو عن الذنب !م تزل تجود وتعفو منه وتكرما^(٤)

(١) «المصدر السابق»: ١٤ / ٢٢١.

(٢) المصدر السابق: ٢٢٢.

(٣) المصدر السابق.

(٤) «إتحاف السادة المتقين»: ٢٣٤.

وأذكر صورة رائعة لما يجب أن يكون عليه ثبات المؤمن :

١٤- لما أسر خبيب بن عدى -رضى الله عنه- قدمته قريش ليقتلوه، فقالوا له ننشدك الله: أتحب أنك الآن جالس في أهلك وأن محمداً مكانك؟

قال: والله ما أحب أن محمداً يشاك في مكانه شوكة تؤذيه وإنى جالس في أهلى .

وكان قد صلى ركعتين قبل أن يُقتل وقال: والله لولا أن تحسبوا أن ما بى جزعٌ لزدت، وقال:

فلمست أبالى حين أقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع^(١)

وهناك مثالان رائعان على حسن الخاتمة حصلوا فى زماننا بل فى زمن قريب منه، أولهما ما حدث لقبطان الطائرة السعودية التى تحطمت فى الهند فى شهر جمادى الآخرة من سنة ١٤١٧هـ، فقد سمعته فى شريط مسجل من برج المراقبة فى مطار دلهى، سمعته ينطق بكلمات خالداً، رائعات جميلات، تكلم بها عندما اصطدمت طائرته بالطائرة الكازاخستانية، وأيقن القائد بالموت، عندها قال:

«أستغفر الله، أشهد أن لا إله إلا الله»، فالله تعالى وفقه للنطق بتلك الكلمات العطران قبل موته، وهو فى حالة صعبة مواجهها لموت الفجأة،

(١) «إنحاف السادة المتقين»: ٢١٠ .

الثبات

وهذا يدل على ثبات عظيم وتوفيق كبير، فرحم الله القبطان خالد الشبيلي رحمة واسعة، وبوأء من الجنة علياً منازلها، آمين.

وأما المثال الآخر فهو الشيخ الشهير، الخطيب المصقع، البليغ الداعية، فضيلة الأستاذ عبد الحميد كشك، حيث توفي في شهر شعبان من عام ١٤١٧هـ وهو ساجد لله تبارك وتعالى في صلاته، فقبضت روحه على هذه الهيئة الملكية الرائعة، وعسى أن يُبعث عليها إن شاء الله تبارك وتعالى.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

قد وفقني الله -تعالى- لكتابة بحث في هذا الأمر المهم: الثبات، وقد تبينت أثناء البحث ما يلي:

أولاً: قلة من كتب كتابة علمية جادة في هذا الموضوع، وإنما ورد هذا البحث شذرات متفرقة في بطون الكتب، أو في كتيبات مستقلة تفاوتت في كيفية تناول هذا الأمر المهم، وفي شمول ذلك التناول، وقوته أو ضعفه.

ثانياً: إن مدار صلة المسلم بالله تعالى إنما هو على قدر ثباته ورسوخه في فهم وتطبيق هذا الدين العظيم، لذا كان الثبات من أعظم أعمال القلوب وأهمها.

ثالثاً: إن الثبات عامل مهم في قدر ما يقدمه المسلم من صالحات في هذه الدار؛ إذ إن تطوعه من صيام وصلاة وصدقة ونحوها، ودعوته الخلق إلى الحق سبحانه وتعالى، وتصنيفه المصنفات، وتربيته الطلاب. كل ذلك متوقف -بعد فضل الله تعالى- على قدر الثبات الذي يودعه الله تعالى في القلوب المخلصة.

فعلى العبد المسلم -إذاً- أن يضع نصب عينيه دومًا أمر الثبات وأهميته، ويحاول أن يدوم على الثبات حتى الممات، إن شاء الله تعالى.

الثبات

«اللهم أنت الحى القيوم، والأول الدائم... والبارئ المصور، والخالق المقدس، والجبار الرفيع، والقهار المنيع، والملك الصَّفَّوح، والوهاب المُنَّوح، والرحمن الرؤوف، والحنَّان العطوف، والمنان اللطيف، مالكُ الذوائب والنواصي، وحافظ الدواني والقواصي، ومصرف الطوائع والعواصي. إلهى وأنت الظاهر الذى لا يجحدك أحد إلا زابلتَه الطمأنينة، وأسلمه اليأس، وأوحشه القنوط، ورحلت عنه العصمة، فتردد بين رجاء قد نأى عنه التوفيق، وبين أمل قد حفت به الخيبة، وطمع يحوم على أرجاء التكذيب، وسرٌّ قد أطاق به الشقاء، وعلانية أناف عليها البلاء، لا يرى إلا... مفسوخ القوة، مسلوب العُدة، تشنؤه العين، وتقلاه النفس، عَقَلُهُ عقلُ طائر، ولَبُهُ لُبُّ حائر، وحكمه حكم جائر، لا يروم قراراً إلا أزعج عنه، ولا يستفتح باباً إلا أرتج دونه... إن سمع زيف، وإن قال حرف، وإن قضى حرف»^(١).

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) «البصائر والذخائر»: ٣/٥-٦.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

١- «آفات على الطريق»: الدكتور السيد نوح.

نشر: دار الوفاء للطباعة والنشر. المنصورة. مصر. الطبعة الثامنة.
سنة ١٤١٤.

٢- «إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين»: السيد محمد بن
محمد الحسيني الزبيدي.

نشر: دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى. سنة ١٤٠٩.

٣- «الإصابة في تمييز الصحابة»: الحافظ ابن حجر العسقلاني، أحمد بن
علي بن محمد (ت ٨٥٢).

نشر: دار الكتاب العربي. بيروت.

٤- «الاعتدال في التدين: فكراً وسلوكاً ومنهجاً»: الدكتور محمد
الزحيلي.

نشر: كلية الدعوة الإسلامية العالمية. طرابلس. ليبيا. سنة ١٤١٢.

٥- «إعلام الموقعين عن رب العالمين»: الحافظ ابن قيم الجوزية، محمد بن
أبي بكر (ت ٧٥١).

تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبدالحמיד.

نشر: دار الفكر. بيروت. الطبعة الثانية. سنة ١٣٩٧.

٦- «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان»: الحافظ ابن قيم الجوزية = محمد ابن أبي بكر (ت ٧٥١).

تحقيق: الشيخ محمد حامد الفقى.

نشر: دار المعرفة للطباعة والنشر. بيروت.

٧- «الألفاظ الكتابية»: العلامة عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني (ت ٣٢٠).

نشر: المكتب الإسلامى. بيروت ١٣٩٩.

٨- «أمل دنقل: الأعمال الشعرية الكاملة».

نشر: دار العودة. بيروت.

٩- «الإيمان والحياة»: الدكتور يوسف القرضاوى.

نشر: مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الثالثة عشرة ١٤٠٧.

١٠- «البداية والنهاية»: الحافظ ابن كثير = إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤).

نشر: دار الفكر. بيروت.

١١- «البصائر والذخائر»: لأبي حيان التوحيدى = على بن محمد بن

العباس (ت ٤١٤).

تحقيق الدكتورة وداد القاضي .

نشر دار صادر . بيروت . الطبعة الأولى .

١٢- «تاج العروس من جواهر القاموس»: الشيخ محمد مرتضى الزبيدي
(ت ١٢٠٥).

تحقيق: مجموعة من الأساتذة . طبع: مطبعة حكومة الكويت .

١٣- «التذكرة في أحوال الموتى والدار الآخرة» الإمام القرطبي = محمد
بن أحمد (ت ٦٧١).

تحقيق: د. السيد الجميلي .

نشر: دار ابن زيدون ببيروت، ومكتبة مدبولي بالقاهرة .

الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٦ .

١٤- «الترغيب والترهيب من الحديث الشريف»: الحافظ المنذرى = عبد
العظيم بن عبد القوي (ت ٦٥٦) .

ضبط وتعليق: الأستاذ مصطفى عمارة .

نشر: دار الفكر . بيروت . سنة ١٤٠١ .

١٥- «تفسير القرآن العظيم»: الحافظ ابن كثير = إسماعيل بن عمر
(ت ٧٧٤) .

تحقيق الأساتذة: محمد إبراهيم البنا وعبد العزيز غنيم ومحمد
عاشور.

طبع: مطبعة الشعب. القاهرة.

١٦- «الجامع الصحيح»: الإمام البخارى = محمد بن إسماعيل
(ت ٢٥٦).

نشر: دار الجليل. بيروت.

١٧- «الجامع الصحيح»: الإمام الترمذى = محمد بن عيسى بن سورة
(ت ٢٧٦).

حقق بعضه: الأستاذ المحدث أحمد شاكر.

نشر: دار إحياء التراث العربى - بيروت.

٢٨- «الجنوبى: أمل نقل»: عبلة الرويتى.

نشر: دار سعاد الصباح.

١٩- «الدر المشور فى التفسير بالمأثور»: الإمام جلال الدين السيوطى =
عبد الرحمن بن أبى بكر (ت ٩١١).

نشر: دار الفكر. بيروت. الطبعة الثانية. سنة ١٤٠٣.

٢٠- «الزهد»: الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١).

نشر: دار الكتب العلمية. بيروت. سنة ١٣٩٨.

- ٢١- «السيرة النبوية»: الإمام عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨).
تحقيق وضبط الأساتذة: مصطفى السقا وإبراهيم الإياري وعبد
الحفيظ شلبي.
نشر: مؤسسة علوم القرآن. بيروت.
- ٢٢- «شرح صحيح مسلم للنووي»: إعداد مجموعة من الأساتذة.
نشر: دار الخير. بيروت، دمشق.
- ٢٣- «الصبر في القرآن الكريم»: د. يوسف القرضاوى.
٢٤- «صفات الداعية النفسية»: الدكتور عبد الله علوان.
نشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة.
القاهرة، حلب، بيروت. الطبعة الثانية سنة ١٤٠٦.
- ٢٥- «الطبقات الكبرى»: محمد بن سعد الزهرى (ت ٢٣٠).
نشر: دار صادر. بيروت. سنة ١٣٨٨.
- ٢٦- «طريق الدعوة في ظلال القرآن»: أحمد فايز.
نشر: مؤسسة الرسالة. بيروت.
- ٢٧- «عقبات في طريق الدعاة، وطرق معالجتها في ضوء الإسلام»:
د. عبد الله علوان.
نشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة.

القاهرة، حلب، بيروت. الطبعة الأولى. سنة ١٤٠٧.

٢٨- «العوائق»: الأستاذ محمد أحمد الراشد.

٢٩- «فتح الباري شرح صحيح البخاري»: الحافظ ابن حجر = أحمد بن علي بن ثابت (ت ٨٥٢).

ضبط الأساتذة: طه سعد ومصطفى الهواري، والسيد عبد المعطى.

نشر: مكتبة الكليات الأزهرية. القاهرة. سنة ١٣٩٨.

٣٠- «الفتور»: الشيخ جاسم بن مهلهل الياسين.

نشر: دار الدعوة. الكويت. الطبعة الأولى. سنة ١٤٠٨.

٣١- «القدوة الصالحة أخلاق قرآنية ونماذج ربانية»: الأستاذ حسنى أدهم جرار.

نشر: دار الضياء للنشر والتوزيع. عمان. الطبعة الأولى. سنة ١٤٠٥.

٣٢- «لسان العرب»: ابن منظور الإفريقي = محمد بن مكرم (ت ٦٣٠).

نشر: دار صادر. بيروت.

٣٣- «المتساقطون على طريق الدعوة»: الدكتور فتحى يكن.

نشر: مؤسسة الرسالة. بيروت.

٣٤- «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد»: الحافظ نور الدين الهيثمي = على ابن أبي بكر (ت ٨٠٧).

نشر: مؤسسة المعارف. بيروت. سنة ١٤٠٦.

٣٥- «مختصر تاريخ دمشق»: تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر = على ابن الحسن (ت ٥٧١).

ومختصره لابن منظور الإفريقي = محمد بن مكرم (ت ٦٣٠).

نشر: دار الفكر. بيروت. الطبعة الأولى. سنة ١٤٠٩.

٣٦- «مختصر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية»: للإمام عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي = أبو شامة (ت ٦٦٥).

اختصار: مؤلف هذا الكتاب.

نشر: دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع - جدة - الطبعة الأولى - سنة ١٤١٨.

٣٧- «مدخل إلى ظلال القرآن»: د. صلاح الخالدي.

نشر: دار المنارة للنشر والتوزيع. جدة. الطبعة الأولى. ١٤٠٦.

٣٨- «المستقبل لهذا الدين»: الأستاذ سيد قطب (ت ١٣٨٦).

نشر: دار الشروق. القاهرة، بيروت. سنة ١٣٩٤.

٣٩- «معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم»: د. عبد الوهاب بن

لطف الديلمي.

نشر: دار المجتمع للنشر والتوزيع. جدة. الطبعة الأولى. سنة

١٤٠٦.

٤٠- «معالم في الطريق»: الأستاذ سيد قطب (ت ١٣٨٦).

نشر: دار الشروق: القاهرة، بيروت. سنة ١٤٠١.

٤١- «من أخبار المتكسبين مع الأسباب والعلاج»: صالح العصيمي.

نشر: دار ابن خزيمة للنشر والتوزيع. الرياض. الطبعة الأولى. سنة

١٤١٦.

٤٢- «من ركائز الدعوة»: د. مجدى الهلالي.

نشر: دار البشير. طنطا. مصر.

٤٣- «المنطلق»: الأستاذ محمد أحمد الراشد.

نشر: مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الثانية. سنة ١٣٩٦.

٤٤- «نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء»: المؤلف.

نشر: دار الأندلس للنشر والتوزيع. جدة. الطبعة الأولى. سنة

١٤١١.

٤٥- «الوافى بالوفيات»: الشيخ صلاح الدين خليل بن أبيك الصغدي.

تحقيق: مجموعة من الأساتذة.

دار النشر: فرانز شتاينر. شتوتجارت. ألمانيا.

٤٦- «وسائل الثبات على دين الله»: الشيخ محمد المنجد.

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٣	* الإهداء
٥	* مقدمة الناشر
٧	* مقدمة الطبعة الأولى
٩	* مقدمة الطبعة الثالثة
١١	• معنى الثبات
١٢	• جوانب الثبات :
١٢	١- الثبات على دين الله، تبارك وتعالى
١٢	٢- الثبات على الالتزام بدين الله تعالى
١٣	٣- الثبات على المبدأ الإسلامى الصحيح والعهد الوثيق .
١٦	• أهمية الثبات:
١٦	١- الثبات دلالة سلامة المنهج وداعية إلى الثقة به
١٧	٢- الثبات مرآة لشخصية المرء، ومطمئن لمن حوله
١٧	٣- الثبات ضريبة الطريق إلى المجد والرفعة فى الدنيا والآخرة.
١٧	٤- الثبات طريق لتحقيق الأهداف
١٨	• صور على الثبات:
١٨	١- ثبات الأنبياء

- ٢٠ ٢- ثبات الصالحين
- ٢١ ٣- عبد الله بن حذافة بن قيس السهمي
- ٢٣ ٤- أبو بكر الرملي
- ٥- العلماء الذين اختاروا الموت على عدم الترضى عن
 ٢٤ الصحابة
- ٢٤ ٦- أحمد ساموري توري
- ٢٦ ٧- عمر المختار
- ٢٩ ٨- سيد قطب
- ٣١ • صور على تراجع الثبات:
- ٣٢ ١- بلعام بن باعوراء
- ٣٣ ٢- عبید الله بن جحش
- ٣٤ ٣- الرَّحَّالُ بن عُنْفُوَة
- ٣٤ ٤- النعمان بن محمد المغربي
- ٣٥ ٥- ابن السقاء
- ٣٥ ٦- المنصور على بن أيبك
- ٣٦ ٧- عبد الله القصيمي
- ٣٧ ٨- أمل دُنُقُلُ
- ٣٨ • عوامل بقاء الثبات:
- ٣٨ ١- الدعاء
- ٤١ ٢- تدبر القرآن

- ٤٢ ٣- حسن الصلوة بالله تعالى
- ٤٦ ٤- التثبيت من قبل الصالحين:
- ٤٦ أ- تثبيت هارون موسى عليهما السلام
- ٤٧ ب- تثبيت النبي ﷺ الصحابة في حادثة عظيمة
- ج- تثبيت عمر -رضى الله تعالى عنه- رجلاً من أهل الشام
- ٤٩ د- تثبيت عمر -رضى الله تعالى عنه- عيَّاش بن أبي ربيعة
- ٥٠ هـ- تثبيت أبو جعفر الأنبارى الإمام أحمد
- ٥٣ و- تثبيت رجل فى السجن الإمام أحمد
- ٥٣ ز- تثبيت محمد بن نوح الإمام أحمد
- ٥٤ ح- تثبيت رجل لا يُعرف عفان بن مسلم
- ٥٤ ط- تثبيت القاضى الفاضل صلاح الدين الأيوبى
- ٦٢ ٥- صحبة الصالحين
- ٦٦ ٦- التربية الصحيحة:
- ٦٧ أ- التربية الإيمانية
- ٦٨ ب- التربية الثقافية
- ٦٨ ج- التربية العملية (التربية بالمواقف)
- ٦٩ د- التربية على الدعوة إلى الله عز وجل
- ٧٠ ٧- الاطلاع على سير الثابتين

- ٧٠ ٨- قراءة التاريخ والسير
- ٧٢ ٩- الثقة بنصر الله
- ٧٥ ١٠- التزام شريعة الإسلام وآدابه ضماناً للثبات، فمن ذلك.
- ٧٥ أ- الحث على استدامة العمل الصالح ولو كان قليلاً ..
- ٧٦ ب- الحث على الاستزادة من أعمال الخير والبر
- ٧٧ ج- الاحتراس حال الفتور
- ٧٨ د- الترويح والاستجمام وعدم التشديد على النفس ...
- ٨٠ ١١- الخوف من الانتكاسة وسوء الخاتمة
- ٨٢ • عوامل هدم الثبات:
- ٨٢ أولاً: الأمراض القلبية، ومنها:
- ٨٢ ١- التخوف، وينقسم إلى:
- ٨٢ أ- التخوف على النفس
- ٨٣ ب- التخوف على الأهل والأولاد
- ٨٥ ج- التخوف على المنصب والجاه
- ٨٥ د- التخوف على المال
- ٨٦ هـ- التخوف من الاستهزاء والسخرية والانتهاك الباطل.
- ٨٧ ٢- العُجب
- ٨٨ ٣- اليأس
- ٩٠ ٤- الاستعلاء الكاذب
- ٩١ ٥- التطلع إلى المنصب والشراء

- ٩٤ ٦- التطلع إلى الشهوات
- ٩٦ ٧- الغيرة والحسد
- ٩٧ ٨- الغلو
- ١٠١ ثانياً: الأمراض السلوكية، فمنها
- ١٠١ أ- الترخص والتساهل في أمر الصغائر
- ١٠٢ ب- الاستعجال
- ١٠٣ ج- كثرة المزاح وانعدام الجدية أو ضعفها
- ١٠٤ ثالثاً: مؤثرات خارجية:
- ١٠٤ أ- الفتن والابتلاءات والمحن:
- ١١٠ * أنواع المحن والابتلاءات والفتن
- ١١٢ ب- اختلاف المسلمين وتفرقهم
- ١١٢ ج- ضغط الأهل والولد
- ١١٦ د- التزبب قبل التحصرم
- ١١٧ هـ- التأثير السلبي لبعض وسائل الإعلام
- ١٢٠ و- المجتمع الفاسد
- ١٢١ • صور على احتضار الثابتين قديماً وحديثاً
- ١٢٧ • الخاتمة
- ١٢٩ • المصادر والمراجع
- ١٣٩ • الفهرس